(خطبة الكتاب)

يلتمس بونز اوف بلازون ، وريمون راهب لى بـوي منكم ياصاحب النيافة اسقف فيفية ، ومـن جميع اتبـاع العقيدة المستقيمة المباركة والمشاركة في الامنا ، ونريد اذ نحن نضع هذا الكتاب ان نخبركم ونخبر معكم الشـعب كله فيمـا وراء الالب بأخبار جميع الاعمال الرائعة التي نفـذها الرب مـن خلالنا بكرمة المعتاد على الدوام ، وبسبب ظروف الحرب وما دأب عليه الآبقون من نشر للاكاذيب وبعد عن الحقيقة ، فان المهمة التي تولينا القيام بها ستمكن قـراء الايام المقبلة مـن تجنب معاشرة مثل هؤلاء المرتدين والاستماع الى ارائهـم ، لان اعمالهم ستكون مـكشوفة ، وجـدير بـالذكر ان جيش الرب ، مع انه عانى من سوط الرب بسـبب خـطاياه ، قـد انتصر على جميع الوثنيين لان الرب عطـــوف ودود ولعله سيكون من الصـعوبة بمـكان ان نكتـب عن كل رحلة مـن الرحلات ، لان بعض الحجاج اجتازو دلماشيا (سلافونيكا) وعبر اخرون بلاد المجرولومبارديا ، او سافروا بحرا ، لهذا ركزنا اهتماما بالكتابة عن كونت صنجيل واسقف لى بوي ، وجيشهما ، دون الاهتمام بالاخرين .

الفصل الاول

السفر خلال دلما شيا وخيانة الاغريق

بعد الرحيل ، دخل الجيش الى بلاد دلماشيا ، وعانى هناك من كثير من المصاعب خلال فصل الشتاء ، والحق اقول بلاد دلماشيا ارض جبلية مهجورة من الصعب الوصول اليها ، فهناك لم تقع اعيننا على حيوانات برية او طيور ، اما سكانها من الهمج فلم يتاجروا معنا ، ولم يزودونا بالأدلاء ، بل انهم فروا من قراهم وحصونهم ، وكأنما نزل بهم اذى شديدا من رجالنا المشردين واهني القوى ، وهكذا ازهقوا ارواح هؤلاء المساكين المنهكين من النساء والشبوخ والفقراء والمرضى ، وذبحوهم كما لو انهم مواشي للذبح ، ولمعرفة السلاف بهذه الارياف واعتيادهم عليها ، كان من الصعب على فرساننا ثقيلي التسليح مطاردة هؤلاء اللصوص وان كانوا غير مسلحين ، وتعقبهم في مسالك الجبال الوعرة وداخل الغابات الكثيفة ، وصبرت قواتنا وصابرت قطاع الطرق هؤلاء ، حيث لم يكن بامكان جنودنا القتال في الجبال ، كما لم يكن بامكانهم تجنب الاشتباك بهم ومناوشتهم .

ونتوقف عن سرد روايتنا عند هذه النقطة ، لنروي قصة قتال مجيد خاضه الكونت ريموند في احد الايام ، عندما وجد نفسه مع فرقته محاطين بالسلاف ، الذين أسروا ستة منهم ، وهنا ادرك ريموند وقد ضغط عليه بشدة ان عليه اقتحام صفوف السلاف حتى يصل الى رفاقه ، فأمر بسمل اعين بعض اسراه ، وبتر اقدام بعضهم الاخر ، وجدع انوف وايدي الباقين ثم اخلاء سبيلهم ، وبذلك سلم هو ورفاقه ، وتملك الاعداء رعب شديد بسبب المشهد المريع الذي وجدوا عليه رفاقهم المشوهين ، فأقعدهم الحزن ، وبهذه

الطريقة نجا الكونت من خطر الموت ، ومن هذا المكان المخيف ، وكان ذلك بفضل الرب واحسانه .

وفي الحقيقة انه لمن الصعب ان نفي بالوصف ماأظهره ريموند من شجاعة وحكمة في دلماشيا ، فلقد سرنا هناك قرابة اربعين يوما ، كنا خلالها نواجه سحب الضباب فنكاد نلمس ابخرتها وندفعها بأجسادنا الى الامام ، وكان الكونت وسط هذه المخاطر يحمي دوما اتباعه بالقتال في ساحة الجيش ، وبالمكوث والانتظار حتى يكون اخر من يصل الى حيث مركزه في الركب ، فقد كان بعضهم يعود الى المعسكر وسط النهار او عند الغروب باستثناء ريموند الذي كان يعود دوما الى خيمته بعد منتصف الليل او عند صياح الديكه .

وبفضل رحمة الرب واعمال الكونت ونصائح ادهمر عبرنا دلماشيا بدون خسائر تذكر بسبب الجوع او الصراع المكشوف ، ويدلل هذا العبور الموفق لهذه البلاد الهمجية ويرشدنا لنؤمن بأن الرب اراد لجيشه من المحاربين ان يعبر دلماشيا حتى يتخلص الهمجيون والوثنيون في وقت من الاوقات من همجيتهم ، او ليساقوا مثل المذنبين غير المغفور لهم الى عذاب الرب .

ولدى وصولنا الى سكوتاري ، بعد رحلتنا الصعبة عبر دلماشيا ، اكد الكونت مبدأ الاخوة ، ووهب ملك السلاف الكثير من الهدايا حتى يتمكن الحجاج من شراء حاجياتهم بسلام ، وليبحثوا عن ضروريات الحياة ، بيد ان هذا كان سرابا ، لاننا ندمنا بمرارة على اعتمادنا على السلام الوهمي ، فقد انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بكل وحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا من امكنهم اختطافه من العزل ، ولعلكم تصدقون اننا كنا وقتها نصلي للحصول على ملاذ وليس من اجل الانتقام ، ولكن لماذا نتابع سرد قصة دلماشيا الكئيبة هذه ؟

ولدى اقامة المعسكر على مقربة من دورازو ، كنا على قناعة اننا

بتنا في بلادنا ذلك اننا وثقنا بألكسيوس وصدقناه مع اتباعه واعتقدنا انهم اخواننا المسيحيين وحلفاء لنا ، غير انهم انقضوا علينا بوحشية كالاسود ، وهجموا على رجالنا المسالمين الذين كانوا غارين وغافلين عما يحتاجونه للدفاع عن الذات ، وقام قطاع الطرق هؤلاء ليلا بذبح اهلينا بالحدائق ، وفي الاماكن النائية عن المعسكر وسلبوا منهم مااستطاعوا سلبه ، وعندما كان الاغريق يتصرفون هكذا بدون رادع ، وعد قائدهم حنا كومينوس باللسلام ، غير انهم قتلوا في ظل هذا العهد بونتيوس رينو ، وأصابوا اخيه بطرس بجراح مميتة ، وكان هذان أميران نبيلان ساميان ، ومع انه توفرت لنا الفرصة للثأر فقد استأنفنا رحلتنا واثرنا السكوت على الظلم الذي حاق بنا ، وفي خلال الطريق تلقينا رسائل ارسلها الامبراطور تحدثت عن السلم والاخوة ، او بالحري تحدثت عن بنوتنا للامبراطور ، لكنها كانت كلمات جوفاء ، لانه كان عن يميننا وعن شمالنا وفي امامنا وعند مؤخرتنا الترك والغز والكومان والبشناق والبلغار وسواهم من الشعوب كلهم متربص بنا .

الفصل الثاني

الرحلة عبـــــر الاراضي الاغريقية والعـــــلاقات بين الكسيوس وريموند صنجيل

كان مما زاد في متاعبنا اننا كنا في احد الايام في وادي بيلاغونيا ، عندما اسر البشناق اسقف لى بوي ، فقد كان قد ابتعد عن المعسكر قليلا بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه ، فرجلوه من على بغلته وجردوه من ملابسه وضربوه بشدة على رأسه ، غير ان واحدا من البشـناق أنقذه من براثن رفاقه من قطاع الطرق فقد طمـع بـذهب ادهمـر ، وبهذه الوسيلة بقي لنا هذا الاسـقف العـظيم الذي لاغنى للعـدالة الربـانية عنه ، ولصـالح الجنس البشري وكل ذلك بـرحمة الرب فعندما سمعت الجلبة في المعسكر ، اندفع الحجاج فأنقذوا الاسـقف من البشناق الذين لم يسرعوا بالاجهاز عليه .

وعندما وصلنا الى قلعة بوسينات ، وجند الامبـراطور الخـونة يحيطـون بنا ، سـمع الكونت ان البشـناق قـد اعدوا لنا كمينا في الممرات الضيقة لجبل قريب ، فأحبط تدبيرهم بان اعد لهم كمينا ثم باغتهم مع فرسانه ، فأنزل بأولئك المرتزقة الخونة ضربة شـديدة ، فقتل العديد منهم وجعل الباقين يلوذون بـالفرار ، وفي تلك الاثناء ، وهذه الاحداث قائمة وصلت رسائل تطمين من الكسيوس ، ومع هذا احاط بنا العدو ، وواجهنا خداع الامبراطور من كل جانب .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة وصلنا الى روسـا ، وهـي مـدينة قـابلنا سكانها بكل ازدراء و تحقير سافر ، فكان ان فقـدنا صـبرنا الذي تحلينا به وعرفناه ، فحملنا السلاح ، واستولينا على المدينة بعـدما استسلمت لنا هدمنا اسـوارها الخـارجية وغنمنا غنائم كثيرة ثـم غادرنا هـذه المدينة بعـدما رفعنا اعلامنا وهتفنا« طـولوز» شـعار الكونت الخاص لجمع اتباعه ، وبعد ذلك زحفنا نحـو رودوسـتو ،

وهناك هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لالكسيوس ، فقد كانت متلهفة للانتقام لهزيمة روسا ، بيد اننا ذبحنا اولئك المرتزقة وفزنا ببعض الغنائم.

وفي رودوستو رجع الينا مبعثونا الذين كنا قد ارسلناهم الى بلاط الكسيوس ، وحملوا الينا تقارير مفرحة عن وعود اغريقية ، كان السبب الرئيس وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولذلك ان الاحداث التالية لاتحتاج الى تعليق اكثر من ذلك ،وحث مبعوثون اغريق ومن شعبنا ريموند على التخلي عن جيشه والمبادرة مع عدد ضئيل من اتباعه للتوجه بدون سلاح الى بلاط الامبراطور ، وابلغوه ان بوهيموند ودوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرين يتوسلون الى ريموند ليعقد صلحا مع الكسيوس بشأن حملة الحجاج ، فالكسيوس قد يحمل الصليب ويصبح قائدا لجيش الرب واضافوا : ان الكسيوس كان على استعداد لتسوية جميع الامور التي تفيد الرحلة مع الكونت ، وذلك فيما يختص به وبالاخرين ، واوضحوا ان غياب مشورة رجل عظيم عشية القتال ، سيكون امرا رديئا ، ولهذا الحوا على ريموند ان يخف الى القسطنطينية على رأس جريدة ، حتى اذا اكتملت الترتيبات مع الكسيوس ، يبدأ الزحف بدون تأخير ، واستجاب ريموند لهذه النصيحة وعمل بها دونما تأخير ، وغادر المعسكر ، وبعدما رتب اموره ، وتقدم الجيش لاداء هذه المهمة ، وذهب وحده بدون سلاح الى القسطنطينية.

والى هاهنا كان تدوين اخبار هذه الاعمال التي اتسمت بالسرور والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب بالقيام بها ، غير ان القصة غدت مشحونة بالشدة والحزن ، حتى انه ليؤلمني انني قد شرعت فيما تعهدت باكماله ، وبصراحة انني لااعرف كيف سأدون هذه الأحداث على اهميتها: هل سأكتب ان ابشع خيانة حملتها الينا مشورة الامبراطور ، ام سأحكي عن هروب جيشنا بشكل مشين ، وعن عجزه الذي لايمكن لأحد ان يتصوره ، او سأشرع برواية خبر موت

بعض الامراء الكبار ، فأودعكم ذكرى حزن دائم ، ومهما يك من امر من اراد المعرفة فليستفسر من غيرنا .

ومع هذا انني سأروى هاهنا خبر حدث له اهمية قصوى فبينما كان قومنا جميعا يحلمون بمغادرة المخيم والفرار متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ماحملوه من البلاد النائية ، اعادت اليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة الى درجة انهم انفسهم دهشوا لرغبتهم بالفرار ، ويأسهم السالف ، ويكفي هذا فنحن لن نتوقف عند هذه القصة اكثر مما فعلناه .

وفي الاستقبال البالغ الحفاوة الذي اعده الكسيوس وامراؤه لريموند ، طلب الامبراطور من الكونت ان يحلف له يمين الولاء الذي اقسمه له الامراء الاخرون ، ورد ريموند انه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد اخر ، او ليكون في خدمة اي كائن اخر غير الرب الذي من اجله هجر وطنه وممتلكات ابائه ، ومع ذلك فإنه سيأتمن الامبراطور على نفسه وعلى اتباعه وامتعته اذا ماسافر مع الجيش الى بيت المقدس ، غير ان الكسيوس اعتذر له عن الزحف وعلل ذلك بخوفه من ان يقوم الالمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب الهمجية بنهب امبراطوريته ، اذا ماتغيب عنها وشارك بالزحف مع الحجاج .

وفي هذه الاثناء علم الكونت بخبر هزيمة رجاله وموتهم ، فادرك انه قد ضلل ، وقام بوساطة بعض قادتنا باستدعاء الامبراطور الى المحاكمة متهما اياه بخيانة الحجاج ، لكن الكسيوس رد بأنه هو نفسه يعرف بأن قواتنا نهبت مملكته لكنه لم يعلم ان شعبه قد اقترف كثيرا من الاخطاء ، ولهذا فإنه لايرى ادنى اساس قانوني لتحقيق الكونت ، ولعل ماحدث هو ان جيش ريموند قد لاذ افراده بالفرار لدى رؤية جيش الامبراطور الذي جاء ليمنعهم من تدمير المدن المحصنة والقرى ، ومع هذا فقد وعد بتقديم ترضية للكونت ، واعطاه

بوهيموند رهينة للوفاء بعهده وأخيرا توصلا الى اتفاق وارغم الكونت (ظلما) على اطلاق سراح رهينته.

وفي تلك الاثناء وصل جيشنا الى القسطنطينية ، ثم تلاه وصول الاسقف مع اخيه الذي كان قد خلفه مريضا في دورازو ، وارسل الكسيوس مرارا وتكرارا يعد انه سيمنح الكونت المكافآت بكل سخاء اذا ماأقسم له يمين الولاء مثلما فعل بقية الامراء ، ولكن ريموند كان دائم التفكير في المعاملة الظالمة التي لقيها هو ورجاله ، وسعى الى محو عار هذه الفضيحة ، ومع هذا فقد تأسف دوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرون لمثل هذه الافكار قائلين انه من الطيش الكبير ان يحارب المسيحيون المسيحيين بينما الترك على مقربة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند قد تعهد لألكسيوس بتقديم الدعم له في حال اتخاذ ريموند اجراء ضده ، او اذا تأخر الكونت اكثر في اعتذاره عن اداء يمين الولاء .

وعند هذه النقطة ، اقدم الكونت ، بعد ماتشاور مع البروفنسايين على القسم والتعهد انه لن يعرض هو نفسه او بوساطة اخرين ، حياة الامبراطور و ممتلكاته للخطر و لدى تذكيره بالولاء ، رد بأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب ما تعرضت له حقوقه من مخاطر ، و هنا يمكن أن نستدرك أن ألكسيوس أعطاه بسبب ذلك القليل من المتاع الدنيوي ، و مرد ذلك تشدده و عناده

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الاناضول

وبعد جواز البحر خففنا الخطى نحو نيقية التي كانت محاصرة من قبل غودفري وبوهيموند وقادة اخرون من الذين كانوا في الطليعة ، وتتمتع نيقيه بحماية طبيعية ودفاعات قوية ، وكانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تمتد الى اسوارها ، مع خندق مليء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، وهو يسد المدخل من جهات ثلاث ،واحاط رجال بارعون نيقية باسوار شاهقة ، الى حد ان المدينة لم تكن تخشى هجوم الاعداء ولاقوة اي آلة ، وكانت عرادات الابراج القريبة موضوعة بشكل متناوب ، حتى ان احدالم يكن ليستطيع التحرك بالقرب منها دون ان يتعرض الى الخطر ، واذا ماأراد احد الزحف نحو الامام لم يكن بامكانه الحاق اي ضرر بها لانه سيكون من السهل جداً ضربه من اعلى البرج .

ومهما يكن من امر ، لقد حاصرها بوهيموند ـ كما قلنا ـ من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والالمان من الشرق ، والكونت واسقف لى بوي من الجنوب ، وللذكرى ينبغي ان ندون ان كونت نورماندي لم يكن حاضرا ، ولهذا ينبغي ان نذكر الواقعة التالية :بينما كان كونت طولوز يرغب في اقامة معسكره هناك زحف الاتراك هابطين من الجبال في تشكيلين ، وانقضوا على جيشنا ، ولاشك انهم قد وضعوا خططهم على امل ان تقاتل احدى فرقتيهم غودفري والالمان المعسكرين في الشرق ، بينما تدخل فرقة الاتراك

الاخرى الى نيقية من الباب الجنوبي لتخرج من بـاب اخـر فتنقض على قواتنا الفارة فتبيدها بكل يسر وسهولة ، لكن الرب ذي النقمـة المعتادة على مخططي السوء ، احبط خططهم ، وبدا الحال وكانه قد دبر للمعركة بحيث تؤدي المحصلة التالية : فقد جعل الرب الكونت ، الذي كان على وشك ضرب معسكره هناك مع رجاله يهاجم الفـرقة التركية التي كانت على وشك دخـول نيقية في ذلك الوقـت ، وابـاد ريموند في الهجوم الاول العديد منهم وقتل الكثيرين ثـم ارغم البقية على الفرار وطاردهم الى جبل قريب ، بينما اجبر في الوقت نفسه ـ الترك الذين كانوا يخططون للقضـاء على الالمان على الفـرار وابيد اكثرهم .

ونصبنا بعد هذا النجاح المجانيق وقصفنا الاسوار ، انما بـدون محصلة ، فقد كانت الاسوار منيعة لاتخترق ، وكان الدفاع الشجاع بالنشاب والالات يبعـث على الاحبـاط ، واخيرا حـدث بعـد مضي خمسة اسابيع من الحصار غير المجدي ، ان اندفعت بمشـيئة الرب بعض القوات من حاشية ادهمر واتباع ريموند الى الامام وتمـكنت بعد مخاطرة كبيرة من الوصول الى اسفل احد الابراج ، وامكن لهذه القوات تحت حماية دبابة ان تـدك البـرج دكا وتقـوض اسـاساته وتسويه بالارض ، لكن حال حلول الظلام دون الاستيلاء على نيقية ، وفي صباح اليوم التالي ثبت ان جهـودنا كانت بـلا طـائل ، ذلك ان المدافعين عن المدينة رمموا الاسوار واصلحوها تحت جنح الظلام ، ومع هذا استولى الخوف على نيقية ، فـاستسلمت ، وكان السـبب الاكبر الذي دفع الى اسـتسلامها هـو ان السـفن الاغريقية التـي سـحبت على الارض كانت تـطفوا الان على سـطح مياه البحيرة ، ونتيجة لهذا فان التـرك الذين انعـزلوا الان عن اصـدقائهم انحنوا لألكسيوس ، حيث لم يعد لديهم امل بوصول النجدات اليهم ، بينمـا كانوا يشهدون الجيش الفرنجي يزداد يوما بعد يوم ، وزاد مـن ذلك وصول كونت نورماندي .

وتعهد ألكسيوس للامراء ولشعب الفـرنجة بتسـليمهم كل مـا في

نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعة ، وزاد على ذلك بـأن قـال انه سيؤسس فيها ديرا للاتين مع ملجأ للمعوزين من الفرنجة ، كما وعد ان يعطي بسخاء كل فرد وجندي في الجيش يتمنى ان يخـدمه مـدى الحياة ، ووثق الفرنجة بهذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاسترداد نيقية ، ولكن ما أن اصبحت نيقية بحوذة ألكسـيوس حتـى تصرف بجحود مع الجيش ، لذلك فإن الناس سيسبونه ويسمونه بـالخيانة مادام حيا .

وفي تلك الاثناء عرفنا انه عندما وصل بطرس الناسك مع حشـود المزارعين التي كانت بصحبته الى القسطنطينية ، قبل شـهور مـن وصول قوات الحجاج الرئيسة ، خانه الكسيوس في ان ارغمه مـع اتباعه ــ الذين لم يكونوا على دراية بمواقع الحـرب ولافنونهـا ــ على عبور المضايق ، وليس معهم مايدافعون به ضد الترك ، وبـذلك عندما ادرك ترك نيقية انهم وقعوا على فـريسة سـهلة ، قتلوا بـكل سرعة ويسر ستين الفا من المزارعين ، ولم يفلت من هؤلاء الا الذين فروا والتجأوا الى احدى القلاع .

وتجرأ المنتصرون وركبهم الغرور بسبب نجـاحاتهم ، فـأرسلوا الاسلحة التي استولوا عليها والحجاج الذين اسروهم الى ساداتهم والى القادة المسلمين في الاماكن النائية ونشروا في بـلادهم كتـابات تفيد ان الفرنجة لم يكونوا اهل حرب .

واثر هذه الاحداث غادرنا نيقية واتجهنا نحـو الاناضـول ، وفي اثناء الزحف تصرف بوهيموند وبعض الامراء الاخرين تصرفـا غير لائق او حكيم ، بأن انفصـلوا عن الكونت والاسـقف والدوق ، وفي اليوم الثالث من زحف بوهيموند منفصلا وفيما هو يفكر ان يعسـكر رأى جنوده مائة وخمسين الف رجل يزحفـون نحـوهم في تشـكيل معركة ، وبينما كان يقوم بتنظيم صفوف قواته للقتـال كمـا تقتضى الظروف ، ويستعد للاشتباك فقد العديد مـن رجـاله الذين تـأخروا خلفه وضلوا الطريق ، وعندما احتدم القتـال اسـتدعى بـوهيموند

الكونت والدوق لمساعدته ، حيث كانا على مسافة ميلين منه ، ومالبثت طلبات النجدات ان وصلتهم ، فارتدى الحجاج دروعهم وامتطوا صهوات خيولهم ، وبادروا مسرعين لقتال العدو ، فور وصول رسول بوهيموند بالاخبار اليهم .

واحبطت امال قلج ارسلان القائد المهاجم ، وخاب فأله لدى رؤية الفرسان المندفعين ، فاسرع بالفرار ، ويبدو لنا ان عدالة السماء هي التي جعلت قلج ارسلان الذي اسر الاسرى ، واستولى على الكثير من خيام بوهيموند يتخلى الان عن أمتعته وكان ذلك بفضل الرب ، ومع اننا لم نر ماسنحكيه ، فان بعضهم قد وصف لنا معجزة كبيرة رأوا خلالها فارسين وسيمين في درعين لهما بريق ، رأوهما وهما يركبان امام جنودنا ، ولايبدو أن طعنات رماح الترك تؤثر فيهما ، وقد القيا الرعب في قلوب الاعداء حتى انهم لم يستطيعوا القتال ، ومع اننا علمنا بهذا من اتراك تحولوا عن عقيدتهم وهم الان يعملون في صفوفنا ، يمكننا ان نؤكد ذلك بدليل اننا كنا نرى ليومين اثناء زحفنا فرسانا موتى وخيولا ميتة .

وبعد هزيمة الترك وصدهم ، مررنا بسرعة وسلام من خلال الاناضول ، مع ان الزحف تأخر قليلا بسبب مرض الم بريموند ، وعلى الرغم ان ماسنحكيه الآن قد يذفر اذواق الساخرين المتهكمين ، فانه ينبغي لنا ان نسجله ونرويه علنا ، لأنه وصف لمعجزة من تدبير السماء ، فقد كان دوق ساكسوني يزعم أن مبعوثا من لدن القديس جيلز (صنجيل) قد تلقى مرتين امرا بان يطلب الى الكونت : « اهدأ وقرعينا ، فلن تموت من هذا المرض ، لانني ضمنت لك راحة من عند الرب ، وساكون دائما على مقربة منك » ومع ان الكونت كان سريع التصديق ، فقد اضعفه المرض ، حتى انه عندما نقل من على سريره ووضع على الارض لم يكد يتردد في صدره نفس من انفاس الحياة ، ولهذا تلا اسقف اورانج الصلوات كما لو كان ريموند ميتا ، غير ان السماء التي جعلت منه قائدا للجيش بعثته حالا من الموت واعادته سليما معافى .

الفصل الرابع

سد المنافذ والطرق وبداية حصار انطاكية

وبينما كنا بعد هذا نقترب من انطاكية ، اقترح العديد من الامراء ان نؤجل القاء الحصار عليها ، خاصة وان الشتاء بات على الابواب ، وتوزيع الجيش في الاماكن الحصينة بعدما ارهقه حر الصيف ، كما وقالوا : ينبغي على الجيش انتظار القوات الامبراطورية والتعزيزات التي اتت اخبار عنها تفيد انها في الطريق من فرنسا ، وقد نصحونا بالدخول الى بعض المواقع والبقاء طيلة الشتاء حتى يأتي الربيع ، وقدم ريموند مع بعض الامراء الاخرين رايا مضادا لقولهم : لقد وصلنا بارشاد الرب وعطفه ومحبته ، وفزنا بمدينة نيقية ، وبعونه ورحمته ننتصر ونعيش في امن من الترك ، وفي سلام وانسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي ان نعهد اليه بامورنا ، ولاينبغي ان نخشى الملوك اوقادة الملوك ، والانرهب الاماكن والأيام ، بما ان الرب قد نجانا من مخاطر كثيرة » وانتصر هذا الراي ، ووصلنا الى انطاكية ، وعسكرنا على مقربة منها الى درجة ان المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من اعالي ابراجهم فاصابوا رجالنا في خيامهم كما اصابوا خيولنا .

ونغتنم هذه المناسبة لنتولى وصف انطاكية مع تضاريسها ، حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروها ان يتابعوا المعارك والهجمات ، ففي احضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسيرة يوم ونصف اليوم ، ويحد السهل مستنقع ، والى الشرق يجري نهر بنساب حول جزء من هذا السهل ثم يعود الى حافة الجبال الواقعة في هذا الاقليم باتجاه الجنوب بحيث لايمكن العبور من الجبال الى النهر ، ومن هناك ينعطف ليصل الى البحر المتوسط القريب منه ،

وعلى هذا تقع انطاكية في هذه المضايق التي يكونها النهر الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث ان تدفق النهر غربا عبر السور الادنى يجعل الارض بينه وبين المدينة تاخذ شكل السهم ، وفي حقيقة الامر ان المدينة التي تقع الى الشرق قليلا ، ترتفع في هذا الاتجاه وتحتضن في داخلها قمم ثلاثة تلال ، وتفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة ضخمة بحيث لايمكن الا بصعوبة بالغة الانتقال من احدهما الى الاخر .

ويزهو التل الشمالي بوجود قلعة عليه ، والاوسط بوجود اخرى تسمى بالاغريقية القسيان(كولاكس) ، اما التل الثالث فليس به الا ابراج ، فضلا عن ذلك فان المدينة تمتد ميلين طولا وتحميها الابراج والاسوار والدفاعات وهي قوية الى درجة انها لاتخشى هجوم الآلات عليها ولا الانسان حتى وإن اجتمع على حصارها جميع بني البشر.

وباختصار قنع الجيش الفرنجي الذي كان يتالف من مائة الف من الرجال المسلحين ، والذي كان معسكرا على طول خط شمالي انطاكية الذي وصفناه ، قنع بالبقاء حيث هو دون ان يشن هجوما على المدينة ، وذلك على الرغم من ان المدينة لم يكن بها الا الفان من الفرسان الممتازين واربعة الاف او خمسة من الفرسان العاديين ، وقرابة عشرة الاف او اكثر من الرجالة ، وكانت انطاكية في مأمن من السقوط مادامت ابوابها مغلقة والحراسة عليها قائمة ، لان واديا وسباخ كانت تحمي الاسوار العالية ، وعند وصولنا اتخذنا مواقع لنا بشكل عشوائي ، ولم نعين حراسا ، وتصرفنا بغباء كبير ، ولاشك ان الاعداء لو عرفوا ذلك لكان بامكانهم اجتياح اي قطاع ارادوه من مخيمنا .

وسقطت في تلك الاثناء عدة قلاع في الاحواز بايدينا مع بعض المدن القريبة وذلك بسبب الرعب منا مع الرغبة بالتخلص من نير الترك ، وترك بعض فرساننا انطاكية وتجاهلوا المصلحة العامة ،

وجروا وراء مصالحهم الخاصة وانانياتهم في كسب بعض المنافع المادية ، وحتى الذين بقوا في المخيم كانوا يستمتعون بحياة كلها ترف الى درجة انهم كانوا لايأكلون الا احسن قطع اللحم كالفخذ والاكتاف ،.ويحتقرون لحم الصدر ، ولايفكرون بالمرة في القمح والنبيذ ، ولم يكن هناك في تلك الايام الطيبة من يذكرنا باعدائنا المختبئين داخل انطاكية سوى رجال الحرس والمراقبة على طول الاسوار ، غير ان الاتراك سرعان ما اكتشفوا ان المسيحيين كانوا يعيثون في القرى والحقول المجاورة علانية ويخرجون اليها بدون سلاح ، وعلى الرغم من ان معلوماتي قليلة عن تحركات الاتراك ، فان اعداءنا سرعان ما قدموا من حلب الواقعة على مسيرة يومين او خرجوا من انطاكية وقتلوا جنودنا المكلفين بجمع المؤن والذين كانوا متناثرين بدون دفاع ، وقد عكرت هذه الاعمال الانتقامية حياتنا الرغدة ، كما ان توفر الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن اغاراتهم بشكل متتابع .

وحرضت هذه الوقائع الحجاج ودفعتهم لان يطلبوا من ريموند القيام بهجوم انتقامي مضاد ، ومع ان بوهيموند لم يستطع ان يجمع سوى مائة وخمسين فارسا ، فانه انطلق اخيرا برفقة كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي ، ويدفعه الحياء من ان يوسم بالتهرب من الاقدام ، وفي الحقيقة كان السبب الاساسي لخروجه امر الرب ، ولقد امكنهم تحديد مواقع الاعداء فهاجموهم وساقوهم الى حتفهم في نهر العاصي ، ثم عاد المسيحيون الى المعسكر فرحين بالغنائم ، وفي الوقت نفسه رست بعض السفن الجنوية في ميناء السويدية القريب والواقع على بعد نحو عشرة اميال ، وفي تلك الاثناء كان الاعداء يتسللون تدريجيا من انطاكية فيقتلون السادة والمزارعين منا الذين كانوا يرعون خيولهم ومواشيهم ، ويعودون عبر النهر بما نهبوه الى داخل المدينة .

ونتوقف الان عن متابعة سرد روايتنا بغية وصف الاطار الذي وقعت فيه الاحداث حتى نوضحها ونبين كيفية وقوعها ، فقد كانت

خيامنا مضروبة على طرف النهر مباشرة ، وكان يقطع هـذا النهـر جسر عائم مصنوع من الزوارق التي كانت مـوجودة هناك ، ووجـد ايضا لانطاكية جسر اخر وقع عند الركن الغربي الاسفل ، ووجد تل في مواجهتنا قام عليه مسجدان وكنيسة صغيرة بها قبور .

ونعود الان لنستانف روايتنا حيث نلحظ ان قواتنا التي كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عدديا ، كانت تتجرأ وتشتبك مـع المقـاومة الطامعة ، غير ان التـرك كانوا يفـرون ويتشـتتون ويكرون كثيرا فيعاودون القتال ، ومرد ذلك الى انهـم اولا كانوا يحملون اسـلحة خفيفة هي القسي ، ثم كانوا يتميزون بخفـة الحـركة على الخيول ، وكانوا من جهة اخرى يمكنهم الاسراع بالعودة عبر جسرهـم الذي ذكرناه ، كما انهم كانوا يحبون ان يمـطرونا بنشـابهم مـن اعلى جبلهـم ، واذكركم ان جسرهـم كان يبعـد ميلا عن جسرنا ، وعلى المنبسط الممتدبين الجسرين كانت تدور يوميا بعض الاشـتباكات ، وبسبب ان ريموند وادهمر كانا معسـكران بـالقرب مـن ضـفاف النهر ، فانهما كانا يتحملان ثقل الغارات ، وكلفت هـذه الغـارات التي اعتمدت على الكر والفر هذين القائدين جميع خيولهمـا ، ولأن الترك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، كانوا يقاتلون عن بعد ، ولهذا كانوا يشكلون خطورة في المطاردة او اثناء الفرار .

وفي الشهر الثالث من الحصار ، عندما تغيب كونت نور مـاندي ، ومرض غودفري ، وارتفعت الاسعار ارتفـاعا هـائلا ، تـم اختيار بـوهيموند وكونت فـلاندرز لقيادة حملة للبحـث عن المؤن قـرب البهسنا ، وتولى وقتها ريموند وادهمر حماية المخيم ، ولدى معـرفة المحاصرين باخبار هذه التطورات اسـتأنفوا غاراتهـم المعتـادة ، وتحرك ريموند بدوره لمواجهتهم بطرائقه المعتادة ، ووضع رجالته في تشكيل المعركة ثم اندفع يطارد الترك بصحبة عدد مـن الفـرسان ، وفي الاشتباك الذي تلا ذلك ، اسر اثنين من المهاجمين وقتلهمـا على جانب التل ، وطرد الآخرين عبر جسرهم الى انطاكية ، وكان المشهد اعظم مما يستطيع الرجالة تحمل رؤيتـه ، فـاضطربت صـفوفهم ،

والقوا راياتهم ، واندفعوا يجرون نحو الجسر في فوضى شاملة ، وفي امنهم الزائف راحوا يلقون الصخور والمقذوفات الاخرى على المدافعين عن الجسر ، وتجمع الترك من جديد وشنوا هجوما مضادا عن طريق الجسر وعبر مخاضة قريبة .

وفي تلك الساعة اندفع فرساننا نحو الجسر لمطاردة حصان شارد ، جعلوه يجري بدون فارس ، وتوهم الرجالة حين رأوا ذلك ان الفرسان يفرون فاسرعوا بالهروب امام الهجوم التركي ، وفي اثناء الاشتباك ذبح الاتراك الهاربين بلا شفقة ، وتوقف فرسان الفرنجة عن القتال ، ووجدوا انفسهم وسط الحشود الهاربة التي اخذت تتلاقفهم وتخطف منهم اسلحتهم ، وتشد خيولهم من ذيولها وتجذبهم ارضا من على صهوات خيولهم ، وتبعهم فرسان آخرون اثناء الاندفاع يحدوهم الشعور بالرحمة والحرص على سلامة قومهم ، لكن الترك شددوا في مطاردة الاحياء بلا هوادة ، وسلبوا الموتى مقتنياتهم ، ولم يكف رجالنا عار القاء اسلحتهم والفرار دون الشعور بالخجل ، بل انهم قفزوا في النهر ليرتطموا بالصخور او ليصابوا بالسهام او ليغرقوا ، ولم يعبر النهر ويصل الى بر الامان الا السباحون والاقوياء.

وفي القتال الذي دار بين جسر الاتراك وجسرنا قتل الترك نحواً من خمسة عشر فارسا من فرساننا وحوالي العشرين من رجالتنا ، ولقي حامل راية اسقف لي بوي واحد النبلاء واسمه برنارد اوف بيزبيه مصرعهما هناك ، واستولى الترك على راية ادهمر ، واننا نامل الاتكون روايتنا عن عدم خجل جيشنا ، سببا في لوم عباد الرب لنا وغضبهم علينا ، لان الرب جعل الحجاج الزناة الناهبين يتوبون اليه اولا ، ولانه من جانب اخر جعل جيشنا يطيب نفسا في بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الرفاه التي كانت تعيشها قوات ريموند وعن انتصاره الكبير ، ووصل بوهيموند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله ، وفي اثناء احدى الغارات على

واحدة من القرى سمع بوهيموند صوت بعض فلاحية وهم يفرون ويطلبون النجدة ، فارسل قوة تستطلع الامر ، فوجدت جمعا من الاتراك والعرب يطاردونهم مطاردة محمومة ، وكان بين القوة الناجدة كونت فلاندرز وبعض البروفانسيين ، وهو اسم يطلق عادة على كل من هو برغندي واوفراني ، وغاسكوني وغوتي ـ والفت الانتباه الى ان كل ما سوى ذلك من قوات جيشنا يطلق عليهم اسم الفرنجة ، ولكن العدو لايميز ، ويستخدم كلمة فرنجة للاشارة الى الجميع ، والان ينبغي ان اعود الى حكايتنا : اندفع كونت فلاندرز بتهور شديد وهو على ظهر حصانه ، اندفع ليواجه الاتراك هكذا حتى لاينالة عار الانسحاب فيما لوأراد الابلاغ عن اقتراب الاعداء ، وبما ان الاتراك لم يالفوا القتال بالسيف ، فقد لاذوا بالفرار ، ومع هذا لم يضع كونت فلاندرز سيفه حتى قتل مائة من اعدائه . و لدى عودة كونت فلاندرز منتصرا الى بوهيموند اكتشف وجود اثني عشر الفا من الاتراك يقتربون من ساقة قواته ، وراى الى يساره عددا كبيرا من الرجالة يقفون على تل غير بعيد ، وبعد مشاورات ومداولات مع بقية جيشه عاد ومعه بعض التعزيزات وبادر الى الهجوم ، بينما تبعه بوهيموند مع الحجاج الاخرين عن بعد ، فحمى بذلك خطوط ساقته ، وكان اسلوب الاتراك المعتاد في القتال ـ حتى عندما يفوقهم عدوهم عددا ـ محاولة الاحاطة باعدائهم ، وهذا ما صنعوه في تلك المواجهة ، ولكن ثاقب نظر بوهيموند جعله يتوقع حيلتهم .

وفر الترك والعرب الذين هاجموا كونت فلاندرز ، وتخلوا عن القتال عندما ادركوا ان المعركة سيكون القتال فيها وجها لوجه بالسيوف ، وليس عن بعد بالتراشق بالنشاب ثم ان كونت فلاندرز طارد العدو وتعقب فلوله مسافة ميلين ، وكان الاحياء يرون القتلى مطروحين على طول الطريق وكانما هم حزم القمح داخل الحقل ايام الحصاد ، واثناء ذلك القتال وجه بوهيموند ضرباته الى القوات التي كمنت له فقضى على الكمين وعليها غير انه لم يستطع منع الشرازم

سالفة الذكر من رجالة العدو من التسلل من خلال اماكن لايمكن عبورها على ظهور الخيل.

ولولا التواضع لعددت هذه المعركة اعظم من الحرب المكابية ،لان مكابيوس قضى بثلاثة الاف على ثمانية واربعين الفا من اعدائه ، في حين دحر فرساننا الاربعمائة ستين الفا من الوثنيين ، ومع هذا نحن لانقلل من مكانة شجاعة مكابيوس ، ولانفخر ببسالة فرساننا ، ومهما يكن من امر اننا نقول ان الرب الذي كان عظيما مع مكابيوس كان اكثر عظمة مع قواتنا .

وفي الحقيقة جاء ردنا على فرار المهاجمين فيه تناقص بالشجاعة ، الى حد ان الحجاج اخفقوا في تتبع الفارين ، وبالتالي عاد جيشنا المنتصر الى المخيم بدون مؤن ، وكان من شان المجاعة التي اعقبت ذلك ان ارتفعت الاسعار حتى ان اثنين من الصولدي لم تكد تكون لهما قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز في اليوم ، كما ارتفعت اسعار الحاجيات الاخرى بالدرجة نفسها ، فما كان من الفقراء والاغنياء الذين ارادوا انقاذ مقتنياتهم الا ان تركوا الحصار ، واما من بقي لقوة روحية فيه ، فقد توجب عليه تحمل رؤية خيوله وهي تموت من الجوع ، وكان التبن قليلا جدا ، ولم تكن سبعة او ثمانية صولديات تكفي لشراء كمية من الحبوب كافية لاطعام حصان واحد لليلة واحدة .

ومما زاد في كربنا ، ان بوهيموند ، الذي شهر بما اداه لنا من خدمات في ديار المسلمين ، هدد بالرحيل ، قائلا ان الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لانه راى رجاله وخيوله تموت من الجوع ، زد على هذا ، لقد اوضح انه رجل امكاناته محدودة وثروته الشخصية لاتكفي لحصار طويل ، وعلمنا فيما بعد انه اعلن تلك التصريحات لانه كان يطمع في تملك انطاكية واتخاذها لنفسه .

ووقعت في تلك الاثناء هزة ارضية في اليوم الاول من كانون

الثاني (١٠٩٧ م) كما راينا شارات اعجازية في السماء ، ففي الهزيع الاول من الليل ، كانت السماء حمراء في الشمال بحيث بدا كما لو ان الشمس اشرقت في يوم جديد ، ومع ان ذلك كان توبيخا من الرب لجيشنا ، حتى نتحول الى النور الذي لاح في الظلام ، فان

عقول بعضنا كانت غلفا وكانوا عنيدين الى درجة انهم لم يكفوا عن حياة الصخب والنهب ، ثم ان ادهمر حث الناس ليصوموا ثلاثة ايام ، وان يصلوا ويتصدقوا ، ويقيموا موكبا ، كما وامر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا اظهر الرب العظيم عطفه ومحبته فأخر عقاب ابنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

واتحول الان الى الحديث عن شخص كدت ان انساه ، لانه القي به في طي النسيان ، وهو تاتيكوس ، الذي صحب جيشنا عوضا عن الكسيوس ، فقد كان له انف مشوه ، كما كان يفتقر الى اية صفات تعوضه عن ذلك ، كان تاتيكوس يحذر الامراء كل يوم وينصحهم بهدوء ليتراجعوا الى القلاع القريبة ، وليطردوا المحاصرين بهجمات متنوعة وكمائن متعددة ، لكن عندما علم الكونت بهذا كله ، وكان وقتها مريضا من يوم هروبه الاضطراري بالقرب من الجسر ، جمع امراءه واسقف لي بوي ، وفي نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على الجماعة ، شريطة انه اذا فقد اي واحد من الفرسان حصانه يعوض بواحد اخر يشتري من الخمسمائة مارك ومن مبالغ اخرى منحت للاخوانيات .

وكانت اتفاقية الاخوانية هذه مفيدة جدا في ذلك الوقت ، ذلك ان فقراء الناس في الجيش ممن كانوا يرغبون بالانتقال الى الجانب الاخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يخافون من هجوم الاتراك ، وكان القليل منهم فقط هم الذين يرغبون في قتالهم ، ذلك ان خيول البروفانسيين ، التي لم تتجاوز المائة فرس ، كانت هزيلة ضعيفة ،

وابادر القول ان الموقف ذاته كان سائدا في معسكر بوهيموند والقادة الاخرين .

وبعد التدبير الاخواني ، هاجم فرساننا العدو بكل جراة ، لان الذين كان معهم خيول لاقيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يدركون تمام الادراك انه يمكنهم استبدال خيولهم المفقودة بخيول افضل ، اه ، يمكنني بالفعل ان استدرك امرا اخر فاضيف ان الامراء عرضوا - باستثناء الكونت - انطاكية على بوهيموند في حال الاستيلاء عليها ، وبناء على هذا الاتفاق اقسم بوهيموند وبقية الامراء على ان لايرفعوا الحصار عن انطاكية لمدة سبع سنوات الا اذا سقطت قبل ذلك .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في المخيم ، انتشرت اقاويل حكت ان جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل انه كان يتالف من عدة اجناس . من السلاف والبشناق والكومان والتركوبلية ، وقد اطلق هذا الاسم على التركوبلية لانهم اما كانوا من قد تربوا مع الاتراك ، او كانوا ابناء امهات مسيحيات واباء اتراك ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال الرحلة . والواقع ان تاتيكوس ، ذلك المشوه ، الذي كان يتلهف لايجاد عذر يهرب بموجبه ، لم يكتف بتلفيق هذه الاكذوبة فحسب ، بل اضاف الى اثامه الحنث باليمين ، وخيانة اصدقائه ، فاسرع هاربا بعد ما تنازل لبوهيموند عن مدينتين او ثلاث هي : طرسوس ، والمصيصة ، واذنة ، وهكذا غادر تاتيكوس المعسكر بحجة الانضمام الى جيش الكسيوس ، وتخلى عن اتباعه ، ومضى ترافقه لعنة الرب ، وجلب بهذا العمل الدنيء العار الابدي على نفسه وعلى رجاله .

الفصل الخامس

المرحلة التالية من حصار انطاكية وتشديد الحصار

وصلت الآن اخبار تفيد أن قائد جيش الخليفة يتقدم على رأس جيش كبير من خراسان ، وهو قادم لنجدة انطاكية ، وبعد انعقاد مجلس الحرب في خيمة ادهمر صدرت الأوامر للرجالة بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج للتصدي للقوة الجديدة ، وكان السبب في صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللائقين بين صفوف الرجالة ، ربما أظهروا جبنا أكثر مما يبدون من شجاعة ، واذا ماراوا قوة كبيرة من الأتراك ، ورحلت الجماعة التي ستقوم بالحملة تحت جنح الظلام ، واختبأت في بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، ولم يستطع المدافعون عن انطاكية أن يعلموا برحيلهم ، وأود الآن أن يصغي الى مايلي الذين حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا في الماضي ، وليسمعوا فعلا عساهم اذا فهموا المثل الذي يضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، أن يسارعوا الى ارضاء الرب بدموع الندم .

لقد زاد الرب حجم وحدات الفرسان الست من دون السبعمائة رجل الى أكثر من الفين ، وبكل تأكيد إنه ليشق علي الحديث عن شجاعة الجيش ، الذي كان فرسانه يغنون اغاني الحرب ، وينشدون بكل ابتهاج ، حتى بدا وكأنهم ينظرون الى المعركة المقبلة كما لو كانت من الألعاب الرياضية ، ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن موضع القتال المقبل كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل واحد من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الالتفاف المعتادة ، والتي كانت تعتمد على نشر قواتهم ، وفضلا عن ذلك فإن الرب الذي قدم لنا المنح

السالفة الذكر ، قد أمدنا بستة أودية متاخمة يمكن لقواتنا أن تتحرك فيها الى المعركة ، وهكذا كنا خلال ساعة قد زحفنا واحتللنا الميدان ، وماأن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة واخذ رجالنا يندفعون الى الأمام ، بينما كان الأتراك يكرون ويفرون ويطلقون سهامهم ثم يتراجعون ببطء .

وقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة الى أن تمكنت من دفع الصفوف الأولى من الأتراك الى المؤخرة ، وقد أخبرنا الذين تخلوا عن مواقعهم فيما بعد انه كان هناك مالايقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان الأتراك في هذا المعترك ، وأخيرا عندما تدخلت صفوف الأعداء صلى الفرنجة الى الرب ، واندفعوا الى الأمام ، وفي الحال فإن الرب الحاضر أبدا « القوي القدير في المعارك » حمى أبناءه وأذل الوثنيين ، وبعد ذلك طاردهم الفرنجة لقرابة عشرة أميال من مكان المعركة الى قلعتهم شديدة التحصين ، ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام الذين كانوا بالقلعة باحراقها ولاذوا بالفرار ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجا وغبطة في المعسكر لأننا اعتبرنا أن احراق القلعة نصرا آخر .

وفي الوقت نفسه شب القتال بشكل اعتباطي في كل مكان باتجاه انطاكية ، لأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بالهجوم على محورين ، أولهما من المحاصرين (من داخل المدينة) والثاني من قوات النجدة التي لم تكن متوقعة ، ولم يحب الرب طرفا على الآخر ، فقد حارب مع الرجالة وهو يبتسم للفرسان ، ذلك ان النصر الذي أحرزه الرجالة لم يكن اقل قدرا من صد الفرسان للنجدات ، وبعدما كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رؤوس القتلى الى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كمذكر بائس لحالة حلفائهم الأتراك ، ومايننتظر المحاصرين من مصائب ، وحين نتأمل الآن ماحدث نستنتج ان ذلك كان أمر الرب ، لأن الأتراك كانوا قد الحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا رأس راية مريم المباركة ، التي استولوا عليها بالأرض ، وهكذا قدر الرب أن رؤية

رؤوس الأصدقاء التي لا حياة فيها ، و المحمولة على القصب ستمنع المدافعين عن انطاكية عن تعييرنا بعد ذلك .

وكان رسل ملك مصر موجودين لدينا في تلك الأثناء ، وعندما شهدوا ماحدث ورأوا المعجزات التي حققها الرب من خلال عبيده ، اثنوا على يسوع بن مريم العذراء ، الذي داس تحت قدمه من خلال الشحاذين التعساء ، أعتى الطغاة ، يضاف الى هذا لقد وعدوا بصداقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وتحدثوا عن الأعمال الممتازة التي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين ولحجاجنا ، وبناء عليه دعونا برسلنا معهم وكلفناهم بالدخول في صلح ودي معهم .

وتزامنت هذه الأحداث مع قرار أمرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على معسكر بوهيموند ، بحيث يمكن فيها احباط اي هجمات معادية محتملة على مخيماتنا ، ولدى اكتمال هذا العمل تمتنت دفاعاتنا حتى اصبحنا مدينة مغلقة من كافة النواحي جاءت محصلة للعمل الجاد وتضاريس الطبيعة ، وهكذا باتت هذه القلعة الجديدة الواقعة الى الشرق منا ، مضاف اليها اسوار انطاكية والمستنقع القريب تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب ، بالاضافة الى ذلك ، كان هنالك نهر يتدفق الى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يلتوي عند سفح الجبل حتى النهر ، زد على هذا ان خطة تقوية موقع اخر على الجبل الصغير الواقع عند أعلى الجسر التركي قد لاقت قبولا عاما ، غير ان الات الحصار التي صنعت في المعسكر ثبت انها غير مجدية .

وفي الشهر الخامس ، وبينما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، بدأ المحاصرون يسدون الطريق الى البحر ويفتكون بقوافل التموين ، وفي أول الأمر كان الأتراك يهددوننا دائما ، وكان السبب الأكبر في ذلك هو عدم رغبة قادتنا بالرد عليهم بأعمال انتقامية ، فجراهم هذا ، ولمواجهة هذه المخاطر ، قررنا أخيرا تحصين المعسكر بالقرب من الجسر ، ونظرا لغياب جزء كبير

من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيموند والكونت لتأمين عودة المتغيبين ، وأيضا لنقل الفؤوس والمساحي والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة ، وعندما علم المحاصرون بمهمة ريموند وبوهيموند ، بدأوا هجماتهم المعتادة ، فاندفعت نحوهم قواتنا إنما بتهور وبدون نظام ، فكان أن تبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفي اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيموند عائدين مع حشد كبير من الميناء ، وهم يخيل اليهم انهم في أمان من المخاطر ، كان الأتراك يتجسسون عليهم ، ولكن لماذا نسهب في سرد هذه الحكاية ؟ لقد جرى قتال وهربت قواتنا ، وخسرنا حوالي الثلاثمائة رجل ، ولاأحد يعرف كم خسرنا من الأسلاب والأسلحة ، وفيما هم يقتلوننا كالمواشي في الجبال والوعار ، تحركت النجدة القادمة من المخيم للاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الفارين ، ياالهي ، يارب لماذا هذه المحن ؟ ان قواتنا داخل المخيم وخارجه التي تتمتع بخدمات أعظم قائدين في جيشك : ريموند وبوهيموند انتصر عليها الأعداء وانهزمت ، هل نفر الى المخيم ، أم يفر حراس المخيم الينا ؟« قم أيها الرب وساعدنا تمجيدا لاسمك » ، ولو أن أخبار هزيمة الأمراء وصلت الى المعسكر ، أو لو اننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعيا ، وفي اللحظة المناسبة ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة في قلوب الذين روعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون الى أول صفوف القتال .

وعندما شاهد يغي سيان ، حاكم انطاكية ، امتعتنا المسلوبة وانتصاره فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، بعث بفرسانه ورجالته من المدينة ، ولما كان واثقا من نجاحهم ، أمر بإغلاق ابواب انطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده ان ينتصروا في القتال او يهلكوا ، وفي الوقت نفسه تحرك الحجاج ، وفقا للأوامر الصادرة اليهم ، الى الأمام تدريجيا ، غير ان الأتراك كانوا يجرون هنا وهناك ويطلقون النشاب ، ويهاجمون رجالنا بكل جرأة ، ولم

توقف هذه الأعمال التركية رجالنا ، ومع أنهم عانوا من تلك التحركات ، فانهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد ان رحمة الرب قريبة .

ولدى حضور ساعة المواجهة ركع فارس بروفانسي ، عالي المحتد ، هو ايزوارد أوف جانجيز ، يصحبه مائة وخمسون من المشاة ، ونشد العون من الرب ، وشجع رفاقه على الاندفاع قائلا :« اهجموا ياجنود المسيح » والقى بنفسه على الاتراك ومع اندفاع قواتنا الى الهجوم تحطمت غطرسة العدو ، وكان الباب مغلقا ، والجسر ضيقا ، والنهر واسعا ، ثم ماذا بعد ؟ لقد سحق الأتراك الخائفون سحقا ، أو قتلوا ، أو حطمتهم الأحجار في النهر ، فلم يكن هناك مهرب ، وكان يمكن لليوم ان يمر بسلام على انطاكية ، لولا ان يغي سيان فتح الباب على مصراعيه ، ولقد سمعت بنفسي من العديد ممن شارك في هذا اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصا أو اكثر من الأتراك في النهر على محاذاة سور الجسر ، وبرز هناك غودفري بشكل كبير ، حيث سد الطريق على الأتراك المتزاحمين للدخول من الباب ، وأرغمهم على الانشطار الى صفين وهم يتسلقون المرتفعات .

وبعد قداس ديني ، سار المنتصرون السعداء الى المخيم ومعهم أسلاب كبيرة وخيول كثيرة ، آه ايها الأخوة النصارى ، يامن تبعتمونا للوفاء بنذركم ، كم كنا نود لو أنكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالتنويه ، فلقد أسرع فارس ، وهو خائف من الموت ، بالقاء نفسه في أعماق النهر ، فتلقفه رفاقه الأتراك ، لكن القي به من على ظهر حصانه وهكذا غرق في النهر مع الطعمة التي تعلقت به ، لقد كان في رؤيتنا للحشود العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء ، فراح بعضهم يجرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهم يعرضون على اصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ بعضهم وهم في رداء أو رداءين او ثلاث من الحرير ، يثنون على الرب ، الذي انعم

عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح آخرون ، وقد تسربلوا بثلاث سابغات أو أربعة ، يعرضون تلك الأسلاب شواهد على انتصارهم ، وفي الوقت الذي كان بامكانهم اقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الأسلاب الأخرى ، بتفوق قدراتهم القتالية ، لم يكن بوسعهم تزويدنا بأي معلومات دقيقة عن عدد القتلى ، لأن ابادة الأتراك تمت ليلا ، وبناء عليه لم تجلب رؤوس قتلى الأعداء الى المعسكر .

ومع ذلك اكتشفت في اليوم التالي جثث بعض أعدائنا في خندق قريب من أحد المرتفعات استخدمه المسلمون كمقبرة ، وجرى ذلك اثناء محاولتنا اقامة تحصينات امام جسرهم ، واثارت رؤية غنائم الاتراك ، رجالنا الفقراء ، فانتهكوا حرمة المقابر ، فنبشوا القبور واخرجوا جثث الأتراك وهنا تجلى حجم الانتصار ، فلقد كان عدد الموتى قرابة الف وخمسمائة ، وقد أغفلت ذكر الذين دفنوا بالمدينة ، والذين جرفتهم مياه النهر ، والقيت الجثث بعد هذا في نهر العاصي حتى لاتعيق الروائح الصادرة عنها والتي لاتطاق العمل في بناء القلعة .

وكان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا أثناء هروب الكونت مع بوهيموند ، مابرحوا يعيشون في رعب ويتوجسون حول النتيجة ، غير أنهم مابرحوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى قد بث فيهم القوة ، فالرب دوما يؤدب أبناءه ويشجعهم ، وهكذا شاء الرب أن صار الأتراك الذين قتلوا حاملي الطعام على طول الساحل وضفاف النهر ، وتركوهم طعمة للوحوش والجوارح ، صاروا هم انفسهم بدورهم طعاما في ذلك المكان للوحوش نفسها وللجوارح ذاتها .

وبعد تكريس الانتصار وماصحبه من احتفالات ، واثر اكتمال العمل في القلعة ، حوصرت انطاكية من الشمال ومن الجنوب ، ثم ثار الجدل حول اختيار أمير يتولى حراسة القلعة الجديدة ، ذلك ان

المسائل الخاصة بالجماعة كانت دوما موضع استخفاف ، لتواكل الجميع واعتقادهم أن آخرين سيقومون بذلك العمل ، وفي الوقت الذي طلب فيه بعض الأمراء الراغبين بالمال أصوات نبلائهم للحصول على الوظيفة ، انتزع الكونت ـ خلافا لهوى حاشيته ـ زمام الأمور ، وكان دافعه لذلك من جانب تبرئة ساحته من تهمة التراخي والبخل ، ومن جهة أخرى ليبين منهج الحكمة والقوة للخاملين .

وفي خلال الصيف التالي ، كان ريموند قد اقعده المرض الخطير والطويل ، وبلغ العجز به خلال الشتاء حدا دفع الى القول انه لايميل الى القتال او العطاء ، ومع انه أدى خدمات جليلة ، فقد عد شخصا لااهمية له ، لأن الناس كانوا يعتقدون أنه قادر على بذل المزيد من الجهد ، ولقد تحمل عداوة مردها التشكك ، في قوة تمسكه بالمسيحية حتى كاد الحال يقود الى افتراقه عن البرفانسيين ، وفي هذه الأثناء لم يعر الكونت هذه الاهانات أدنى اهتمام ، ثقة منه في ان الانطاكيين المحاصرين ، وقد انهزم معظمهم سيلوذون بالفرار ، بيد انه حدث عكس ماتوقع حيث احاط به الأعداء ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وهنا تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، وذلك عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة الاف من المسلمين ، وأروع من ذلك ان سيلا من الأمطار غمر في اليوم السالف الخندق المحيط بالقلعة وملاه بالماء ، وهكذا لم تكن هنالك عقبة تعيق حركة الأعداء الا ارادة الرب وقوته ، ومع ذلك انني ارى ان ذلك لايعني تجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يتولون حراسة الجسر ، فقد انعزلوا ووجدوا انفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث كانت المسافة بينهم وبين قلعتهم مقدار رمية سهم ، فاندفع هؤلاء الفرسان نحو الأمام في مواجهة المسلمين في تشكيل دائري نحو طرف بيت قريب ، وهناك واجهوا بكل شجاعة و

اصرار ، الهجوم المحيط بهم و الذي جاء على شكل سحاب منهمر من الذشاب و سيل هائل من الصخور.

وجذبت في الوقت نفسه جلبة القتال قواتنا ، وهكذا انقذت القلعة من الذين هاجموها ، وتوقف الاتراك عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب النجدات ، وتم القضاء على الذين كانوا في المؤخرة ، مع انهم كانوا على مقربة من جسرهم ، وتم اصلاح خندق القلعة واسوارها مرة اخرى ، بحيث يمكن لحاملي الطعام ان يعودوا بأمان من الميناء ، وهكذا انطفأ الغضب الذي كان قد حاق بالكونت ، وانعكس الى درجة انهم نادوه باسم « ابو جيشنا والمدافع عنه » وذاع في أعقاب هذه الوقائع صيت ريموند لأنه تصدى لهجمات العدو وحيدا ، وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، صار الأتراك يطلعون من باب آخر يقع في الجنوب بالقرب من النهر ، ومن هناك قادوا خيولهم الى زاوية بين الجبال والنهر كانت مرعى رائعا .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار فريق من رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعر ، بينما خاض آخرون في النهر ، وقاد هذا الفريق الفي حصان بعيدا عن المرعى ، ولم يدخل في هذا العدد البغال واناث البغال التي استردت ، فجدير بالذكر ان الكثير من اناث البغال كانت قد تعرضت للسرقة في وقت سالف من على الطريق من البحر الى انطاكية ، وذلك على يد الأتراك ، وبعد استرداد هذه الحيوانات أعيدت الآن الى أصحابها بعد التعرف عليها .

وحصن بعد ذلك مباشرة تانكرد ديرا كان يقع على الطريق الآخر من النهر ، ونظرا لأهميته في سد طريق المدينة ، اعطى كونت طولوز الى تانكرد مائة مارك فضي ، كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب امكاناته ، وهكذا يسعدني ان اذكر اننا على الرغم من كوننا أقل عددا من عدونا ، فان نعمة الرب جعلتنا اقوى منه كثيرا ، وفي تلك الأونة كان حملة الأخبار الذين يصلون الينا يبلغون عن تحرك

نجدات للعدو ، وفي الواقع لم تنتشر هذه الأقاويل مـن عند الأرمـن والاغريق فقط ، بل ايضا من المقيمين في انطاكية ، والفت نظـركم الى ان الأتراك قد احتلوا انطاكية قبل اربع عشرة سنة، ولعدم وجود خدم فانهم استخدموا الأرمن والاغريق لذلك الغـرض ، وزوجـوهم من نسائهم ، ومع هذا كان هؤلاء يميلون الى الفرار الينا بالخيول والأسلحة بمجرد ان يتاح لهم الهرب ، وهرب كثير من الصـليبيين الجبناء مع التجار الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية أخرى عاد الفرسان الأقوياء مـن عدة قـلاع وجلبـوا معهـم اسلحتهم بعدما اصلحوها وعدلوا من شأنها ، وعندما اختفى الجبن والتخاذل بدرجة كافية ، او بالحري عادت الجراة ، التـي كانت في كل وقت وزمان كفيلة لمواجهة كل الأخـطار مـع الأخـوة ومـن اجلهم ، فان احد (الأرمن) من رجـال الاتـراك المحـاصرين وثـق بأمرائنا الى حد انه كان سيسلمنا انطاكية .

الفصل السادس

الاستيلاء على أنطاكية

أرسل الأمراء بوهيموند و غودفري ومعهم أيضا كونت فلاندرز ، عقب اجتماع مشترك للتحقق من هذه العرض ، وعند وصولهم الى احدى تلال أنطاكية في منتصف الليل ، وصل رسول من (الأرمني) رجل الأتراك الخائن ، وأمرهم بقوله له : « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح ».

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعة بحذاء شرافات الأسوار وهم يحملون المصابيح وذلك بهدف ايقاظ الحرس وتنبيههم ، وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرابضون في ظلال الأسوار سلما وبدأوا يتسلقون ، واعتلى السور فرنجي يدعى فولغير ، وهو بلا ريب أخو بود يللوس أوف تشارترز ، اعتلاه بلا خوف وتبعه عن كثب كونت فلاندرز الذي أمر بوهيموند والدوق أن يتبعاه ، وعلى اية حال ، انقطع السلم اثناء تداركهم في الصعود ، إلا أن الذين تمكنوا حقا من الوصول الى أعلى السور نزلوا الى داخل المدينة ، وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، ودخل حملة الصليب بهذه الوسيلة ، وقتلوا كل من صدفوه ، وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا ، حتى أن المدينة اضطربت كلها وبكى الأطفال والنساء.

وراح بعض المسيحيون في قلعة ريموند القريبة ، وقد أيقظتهم الجلبة ، يرددون: لقد وصلت نجدات الى العدو،ورد عليهم أخرون :«إن أصوات الألم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفرفت أعلامنا فوق التل الجنوبي لأنطاكية ، وأصاب الهلع أهل أنطاكية لرؤيتهم قواتنا على التل المشرف على المدينة ، وجعل الرب الفوضى تدب بين صفوفهم ، فاندفع بعضهم من الأبواب ، وقفز آخرون من الأسوار ، ولم يصعد أحد منهم ، ولم يقاتل أيا منهم ، وبعد أشهر عديدة من الحصار المضني تكشف أمامنا المشهد السعيد التالي ، إنه مشهد المدافعين عن أنطاكية الذين لم يستطيعوا منذ أمد الفرار من المدينة ، ولا أن يتجنبوا الآن الموت إذا ما تجرأوا على الفرار.

ووقع لنا هناك حادث ممتع رائع ، وهو أن بعض الأتراك كانوا ، يحاولون الفرار دون أن يراهم أحد من خلال الفتحات التي تتخلل التلال في الشمال ، وبينما هم يفعلون ذلك لقيتهم مجموعة من حملة الصليب ، وهنا اضطر الأتراك وقد حبطت خططهم الى التراجع فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة ، الأمر الذي جعلهم يسقطون جميعا من فوق الهضاب الصخرية ، ولقد كان سقوط الأتراك القاتل هذا مشهدا سعدنا برؤيته حقا ، بيد أننا حزنا لضياع أكثر من ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك.

ولن نقف عند وصف كميات الأسلاب ، فلكم أن تتصوروا أي شيء يمكن أن يتبادر الى ذهنكم وتحسبوا أكثر منه ، وفي الحقيقة من غير الممكن لنا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمسلمين ، ومن العبث حكاية القصة بالتفصيل ووصف طرق الموت المختلفة ، وفي الوقت نفسه كان بعض المدافعين يراقبون من موقعهم فوق تل متوسط مقتل رفاقهم وينتظرون توقف القتال ، وعلى كل حال لقد اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم ، غير أن يغي سيان ، وقع أثناء هروبه من أحد الأبواب ، في يد بعض الفلاحين الأرمن فقطعوا رأسه و قدموه لنا بعد ذلك هدية ، و أعتقد أن يغي سيان الذي كان قد قطع رؤوس العديد من الأرمن ، قد قدر له بارادة الرب التي لا توصف أن يقطع رأسه على أيدي فلاحيهم.

لقد سقطت أنطاكية في اليوم الثالث من شهر حزيران ، وكانت هدفا للهجوم منذ حوالي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول من العام المنصرم ، وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة ، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويدونون لها سجلا ، وأمعنوا في نسيان الرب مانح جميع هذه النعم ، فأفرطوا بالأكل بنهم شديد وبذخ واهتموا بالراقصات.

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أي في اليوم الخامس من حزيران نفسه ، حاصر المسلمون حملة الصليب ، وهكذا فإن حملة الصليب الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب وجدوا أنفسهم و قد أحاط بهم الأتراك وفقا لمشيئته ، ومما زاد من خوفنا أن الحصن الكبير ، الذي كان بكل المعايير قلعة حقيقية ، كان بحوزتهم ، وقد وحد صفوفنا الرعب وحاصرنا القلعة ، لكن كربوغا ، مقدم الأتراك ، عسكر بعد وصوله بوقت قصير على بعد قرابة ميلين من أنطاكية ، وذلك اعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، ثم تقدم بصفوف منتظمة نحو جسر المدينة ، وفي اليوم الأول دعم رجالنا دفاعات قلعة الكونت ، خشية أن يستولي الذين في القلعة ــ من الأتراك ــ على أنطاكية لو خرج المسيحيون الى القتال ، وشعروا من جانب آخر أنهم إذا ما تخلوا عن قلعة الجسر ، سيستولي العدو عليها وسيسد طريق الخروج الى القتال ، لأنه كان مسيطرا على مخارج المدينة.

وكان روجر أوف بارنيفيل ، وهو فارس مشهور ومحبوب ، في أحد الأيام يتابع تقهقر الأتراك ، فوقع في أيديهم وقطعوا رأسه ، فاستولى الحزن آنذاك والرعب على رجالنا مما دفع بالكثيرين منهم الى اليأس من القتال ، غير أنه نزلت بأعدائنا نكستان بالمعارك التي جرت بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك هاجموا في اليوم الثالث القلعة بشدة وعنف الى حد أنه بدا أن قدرة الرب هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك ، أصيبوا لسبب غير معروف ــ بالهلع الشديد أثناء عبورهم الخندق المليء بالماء

والمحيط بالقلعة ولم يتمكنوا من هدم الأسوار ، وبادروا بالفرار ، وبعدما انسحبوا الى مسافة قصيرة ، رأوا انه ليس هناك من سبب للفرار غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم ، وشددوا هجماتهم بعنف كما لو كانوا يريدون محو أثر تراجعهم المشين ، غير أن الرب بث الرعب في قلوبهم مرة أخرى ، وبناء عليه عاد رجال كربوغا الى معسكرهم باليوم نفسه.

وأحرق حملة الصليب القلعة ، وانسحبوا الى داخل انطاكية ، وذلك بعدما عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة ، وزاد رعب الفرنجة وقلقهم ، في حين ارتفعت ثقة الأعداء بأنفسهم حتى عنان السماء ، لأنه لم يعد لدينا أمل خارج المدينة ، في وقت احتفظ فيه اعداؤنا بالقلعة الرئيسية داخل انطاكية ، ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك الى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، غير أن المسيحيين ثقة منهم بمواقعهم الاستراتيجية ، وأراضيهم المرتفعة زحفوا ضد الأعداء وهزموهم من أول هجوم ، بيد أنهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وشغلوا أنفسهم بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة ، وعند واحد من مداخل أنطاكية لاقى أكثر من مائة من المسيحيين حتفهم ومات معهم عدد كبير من الخيول ، ونتيجة لذلك بات الأتراك يحلمون أنهم عند دخولهم الحصن سيقومون بمهاجمة المدينة السفلى.

كان هناك واد صغير يتميز بسهل صغير وعين ماء ، وقد وقع بين جبلنا وقلعتهم ، ولذلك بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول الى أنطاكية لم يكن ممكنا إلا عن طريق جبلنا ، واستمر القتال عنيفا وشديدا طوال النهار من الصباح الى المساء بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، وفي غمار وابل النشاب والصخور التي انهالت ، وتحت قعقعة السلاح التي لم تتوقف ، وبعد مقتل أعداد كبيرة من المحاربين ذهبت قواتنا في

سبات نوم عميق ، وكانت هذه بدون شك محنة رهيبة وغير عادية بالنسبة لنا ، وإذا أردت أن تعرف السبب ، لقد توقف القتال ليلا.

وعند صلاة العتمة ، وقت الثقة برحمة الرب ، فقد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها من أعالي الأسوار ، وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال أشاعة فيها إن قتلا جماعيا ينتظر المدافعين ، ومما زاد الرعب أنهم لاذوا بالفرار هم أيضا على الرغم من حث بعضهم المترددين على الصمود ، ومع ذلك فإن رحمة الرب ـ كما قلنا ـ كانت حاضرة ، حتى والمسيحيين في محنة ويأس ، فكان جزاء الرب للداعين له من أبنائه مواساة لهم في المصائب.

الفصل السابع

حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

أظهر الرب قدرته واحسانه في أعقاب الاستيلاء على انطاكية ، بأن اختار فلاحا بروفانسيا ليقوم بتعزيتنا ويسلم الرسالة التالية الى كل من ريموند وأدهمر:

« لقد انذرني القديس اندروز ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح منذ زمن في اربع مناسبات ، وامرني أن ابلغكم ، وأن أعيد اليكم ــ عند سقوط انطاكية ــ الحربة التي اخترقت جنب مخلصنا ، وعندما انطلقت اليوم مع أخرين للقتال خارج أسوار المدينة ، وقعت في يد أثنين من الفرسان ، وكدت أسحق في اثناء انسحابي ، فدفعت الى صخرة فاتر الهمة مغتما ، وعندئذ تجلى لي القديس أندروز ورفيق له ، وحذراني ــ وأنا مذنب تعس ماازال اترنح من العذاب والمخاوف ــ من مزيد من الهموم إذا لم أسارع الى تسليمكم الحربة .

وعندما طالبه الكونت والأسقف بتفاصيل عن طبيعة ما تكشف له وعن تعليمات القديس أندروز رد البروفانسي بقوله: «أثناء الحصار الفرنجي لأنطاكية أيام الهزة الأرضية الأولى ، استبدبي الخوف ، ولم أعد أتفوه إلا بقولي : « انقذني يارب » وكنت وحدي مستلقيا على الفراش في كوخي ، دون أصدقاء يبثون الطمأنينة في قلبي ، وكان الظلام مخيما ، وكما قلت استمرت الصدمات لوقت طويل مما زاد في قلقي ، وفي تلك اللحظة ظهر لي رجلان في ملابس

زاهية ، كان لأكبرهما شعرٌ أحمر يتخلله البياض ، ولحية بيضاء كثة عريضة ، وعينان سوداوتان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة ، وكان رفيقه أطول منه « وأبهى هيئة من أبناء البشر » وسألني الرجل الأكبر : « ماذا تفعل »؟ وكنت وحيدا ، وقد شعرت بالرعب ، فقلت بصوت مرتعش : « من أنت »؟ فقال :« قم ولا تخف واستمع الي ، إنني أندروز الرسول ، بادر الى تأمين لقاء مع اسقف لى بوي وكونت صنجيل وبطرس ريموند من هوت بول ، واسألهم:لماذا لا يعظ أدهمر بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذي يحمله كل يوم ، فهذا سيكون فيه بركة عظيمة لهم بكل تأكيد » ثم أمرني قائلا: « اتبعني وسأكشف لك عن مكان حربة مخلصنا التي يجب أن تعطيها للكونت ، لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

فغادرت فراشي وأنا في رداء نومي فقط ، وتبعته الى داخل انطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالي ، والذي كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجدا ، وكان هناك مصباحان يضيئان مدخل الكنيسة كما لوكنا في رابعة النهار ، ثم إن اندروز امرني بقوله: « ابق هنا » ثم أمرني أن أقف بجوار العمود الذي كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية الى الهيكل ، وبينما بقي رفيقه على مسافة خطوات من درجات الهيكل ، مد القديس اندروز يده الى جوف الأرض وسحب الحربة ووضعها بين يدي ثم توجه القديس أندروز بحديثه الي قائلا: « أنظر الى الحربة التي اخترقت جنب المسيح ، الذي كان السبب في خلاص العالم » وفي الوقت الذي جرت فيه دموع الفرح على وجنتي ، أمسكت بالحربة ، و خاطبت القديس أندروز و أنا أجهش بالبكاء :إذا كنت تود ذلك ، فأنني سآخذها من الكنيسة و سأضعها بين يدي الكونت.

واجابني القديس أندروز: انتظر حتى ما بعد الاستيلاء على انطاكية ، ثم عد وبرفقتك اثني عشر رجلا ، وابحث عن الحربة في المكان عينه الذي كشفت لك عنها فيه ، فسأخفيها الآن « ثم دفنها في

الموضع ذاته ، وقادني بعد هذه التجليات من فوق أسوار المدينة إلى كوخي ، ثم اختفى بعد ذلك »

و بكلمة موجزة إنني بعدما تأملت في حالتي الرثة و عظمتك لم أجرؤ على القدوم اليك ، و بعد ذلك رحلت إلى قلعة قريبة من الرهبا بحثا عن الطعام و بعد هذا أتاني القديس أندروز في الهيئة نفسها ومعه رفيقه نفسه ، وكان ذلك في فجر اليوم الأول من الصوم الكبير عند صياح الديكة ، وسألني ، وكان قد غمر البيت نور عظيم: هل أنت نائم؟ ونبهتني كلماته فأجبته : « لا ياسيدي ومولاي أنا مستيقظ » ثم سألني: « هل أبلغت رسالتي الأخيرة »؟ فأجبته : « سيدي ـ ألم أتوسل اليك أن ترسل شخصا أكثر جدارة مني اليهم ، لأنني خشيت من حالتي الرثة ، فم أجرؤ على المثول بين أيديهم »

فسألني مرة أخرى: « ألا تعرف السبب الذي من أجله قادك الرب الى هذا المكان ودوافع حبه العظيم لك ، واهتمامه الخاص باختيارك؟ لقد طلبك هنا لكي يسوغ اعتباره لمن يختارهم ، إن حبه لك كبير جدا الى درجة أن القديسين يرقدون الآن بسلام ، وهم مدركون لنعمة الرغبة الربانية ، ويودون لو عادوا لحما ودما ، وقاتلوا الى جانبك ، لقد اختارك الرب من بين جميع الناس ، كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق كل من جاءوا من قبلك ، أو من سيأتون بعدك ، بجدارتك وبركتك ، مثلما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة».

« وبعد رحيلهما وقعت فريسة لمرض هدد بصري ، حتى أنني بدأت أتخلص من مواردي المحدودة ، عندما استنتجت فجأة أن هذه الأمراض داهمتني لعصياني أوامر الرسول ، وهكذا عادت الطمأنينة الي ، فعدت الى الحصار ، وفكرت مرة أخرى بحالتي الرثة ، فلم أقل شيئا لأنني خشيت أني إذا ما أبلغتكم أن تصرخوا أني رجل يتضور جوعا جئتكم بهذه الأقصوصة من أجل أن أحصل

على الطعام ، وبعد أمد قصير كنت استريح مع مولاي وليم بطرس في خيمة في ميناء السويدية عشية أحد السعف ، عندما تجلى لي أندوروز المبارك في هيئته السالفة نفسها و معه رفيقه السالف الذكر ، و قال لي :لماذا لم تسلم رسالتي الى ريموند وادهمر؟ فأجبته قائلا: يا سيدي ألم أتوسل اليك أن تبعث بديلا أنبه مني ، يولونه اعتبارهم ، كما يجب أن تعرف أن الأتراك يقتلون كل شخص يسلك الطريق الى انطاكية.

وهنا رد القديس أندروز: لا تخف ، فلن يؤذيك الأتراك ، ولكن ابلغ الكونت ألا يغطس في نهر الأردن عند وصوله ، بل عليه أن يجدف عبر النهر أولا في قارب ، وعندما يصل الى الطرف الآخر ، يرش على جسده الماء وهو مرتد قميصا وسراويل من الكتان ، وبعد ذلك عليه أن يحفظ ملابسه المجففة مع الحربة المقدسة ، ويمكن لمولاي وليم بطرس أن يشهد على صحة هذا الحديث مع أنه لم ير القديس أندروز.

فأطمأنت نفسي،وعدت الى القوات المحاصرة لأنطاكية ، لكني لم استطع أن أجمعكم حسبما رغبت ، وهكذا ذهبت إلى مرسى المصيصة ، وبينما أنا هناك أنتظر ـ وقد نفد صبري ـ لأبحر الى قبرص طلبا للمؤونة ، واجهني القديس أندروز بتهديدات شديدة إذا أنا لم أعد الى انطاكية ، وأملي عليك تعليماته ، وانذاك بدأت وأنا أفكر بطريق السفر الذي سيستغرق ثلاثة أيام من المصيصة الى معسكر الحجاج ، بدأت ابكي بشكل مجنون ، لانني ادركت استحالة ذلك ، وفي النهاية ، وبناء على الحاح مولاي ورفاقي ابحرنا وجدفنا طيلة يوم واحد والريح تساعدنا حتى غروب الشمس عندها هبت فجأة عاصفة واعادتنا خلال ساعة أو ساعتين الى المصيصة ، وبعد هذا حيل بيننا وبين المضي الى قبرص ثلاث مرات ، ولهذا عدنا الى ميناء السويدية وهناك مرضت مرضا شديدا ، إنما بعد الاستيلاء على انطاكية قدمت اليكم ، وهاأنذا أقدم اليكم الآن شهادتي لتقبلوها .

وعد الأسقف هذه الحكاية مخترعة ، غير أن الكونت صدقها بالحال ، ووضع بطرس بارثلميو في عهدة راهبه ريمون (مؤرخنا).

وفي الليلة الثانية تجلى مولانا يسوع المسيح الى كاهن اسمه ستيفن ، كان يبكي وهو ينتظر الموت لنفسه ولرفاقة ، وقد تملكه رعب شديد عندما أبلغه بعض الفارين من القتال عند القلعة بنزول الأتراك من الجبل و فرار الحجاج وانسحابهم بغير نظام ، و قبل دنو موته ، دخل ستيفن كنيسة مريم المباركة ، وذلك رغبة منه أن يشهد الرب عليه ، وهناك اعترف ونال الغفران لذنوبه ، وشرع يرتل التراتيل مع أصدقائه ، وظل طوال الليل يصلي بينما نام الآخرون ، ويردد: « يا مولاي من سيعيش في بيتك ، من سيجد الراحة على جبلك المقدس؟» وفي هذه الساعة ظهر له رجل وسيم ليس كهيئة البشر ، وتوجه بالسؤال الى ستيفن قائلا: من دخل انطاكية؟ فرد ستيفن: المسيحيون ، فسأله الرجل: بم يؤمن هؤلاء المسيحيون؟ وأجابه الكاهن: إنهم يؤمنون أن المسيح قد ولد من العذراء مريم ، وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ودفن ، ثم قام من القبر في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ، فسأله الرجل: إذا كانوا مسيحيين ، لماذا يخافون من جموع الوثنيين؟ ثم تابع يقول:ألا تعرفني ؟

فأجابه الكاهن ستيفن : أنا لا أعرفك ،غير أنك تبدو لي بالغ الجلالة ،و هنا قال له الرجل:« انتبه إلي وحدق بي جيدا » وعندما راقبه ستيفن وتمعن به عن كثب ، رأى فوق رأسه هالة تظهر تدريجيا على شكل صليب يخطف نوره الأبصار أكثر من نور الشمس ، وهنا أجاب الكاهن الرجل الذي كان يسأله : مولاي ، إننا نسمي الصور التي تشبهك في مظهرها صور يسوع المسيح ، ورد عليه السيد قائلا : لقد نطقت بعين الصواب ، فأنا يسوع المسيح ، أليس مكتوبا أنني السيد القوي القادر في المعارك ، هل لي أن أسألك : من هو مقدمك ؟ وأجابه ستيفن : مولاي : ليس لدينا مقدم واحد ، ولكننا نثق بأدهمر أكثر مما نثق بالآخرين .

وأمرني المسيح بقوله : أبلغ الأسقف إن هؤلاء الناس قد أبعدوني عنهم بسبب أعمالهم الشريرة ، ولهذا ينبغي ان يقودهم ـ ابتعدوا عن الخطيئة فسأعود إليكم ـ وفيما بعد عندما سيذهبون إلى القتال ليقولوا : لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم ، فدمر يارب قوتهم ، واهزمهم حتى يعرفوك ، ياربنا حارب معنا وحدنا ، وزاد هذه التعليمات : ستكون رحمتي معكم لو اتبعتم أوامري لمدة خمسة أيام .

وفيما هو يتكلم اقتربت امراة ـ هي مريم أم يسوع المسيح ـ وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد وسألته : ماالذي تقوله لهذا الرجل ؟ ورد المسيح على مريم : لقد سألته عن الناس الذين هم في انطاكية ، فقالت السيدة : اه يامولاي ، إنهم مسيحيون حقا ، هم دوما في صلواتي إليك .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة منه ليشهد الرؤيا ، اختفى المسيح ومريم من أمامه ، وفي الصباح التالي : صعد ستيفن التل المواجه للبرج التركي ، حيث كان امراؤنا ينتظرون ، باستثناء غودفري ، الذي كان يحرس حصن الجبل الشمالي ، وأبلغهم ستيفن في اجتماع عقدوه بفحوى رؤياه الموصوفة ، وأقسم بالصليب على صحتها ، ثم أعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار ، أو القاء نفسه من فوق برج إذا اقتضى الأمر ، لاقناع الذين يرتابون بصدقه .

وازاء هذه الوقائع اعتقدت الحشود أن الأمراء كان بودهم الآن الفرار إلى الميناء ، وانه فقط قلة من ذوي الايمان الراسخ ، لم تكن تفكر بالفرار أثناء الليلة المنصرمة ، وأقسم الأمراء أنهم لن يفروا ، ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار جماعي مشترك ، وهكذا اطمأن الكثيرون ، وحتى ذلك الحين إن إغلاق أبواب أنطاكية بناء على أوامر بوهيموند وادهمر ، حالت دون الجلاء الكامل عن المدينة ، وعلى الرغم من جميع الاحتياطات هرب وليم أوف غراند

مسنيل مع اخيه وعدد كبير من رجال الدين والعوام ، غير ان الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين انفسهم لمخاطر شديدة ، واجهوا مخاطر اعظم هددتهم بالموت ، وهو ماصدر عن رجال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات والرؤى التي كانت تظهر لرفاقنا ، ورأينا نحن إحدى العجائب في السماء ، فقد رأينا نجما كبيرا معلقا وقف فوق انطاكية لبرهة من الوقت ، ثم مالبث أن تفتت إلى ثلاثة أجزاء وسقط داخل المعسكر التركي ، وتشجع الحجاج بعض الشيء وترقبوا بلهفة حلول اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن ، وفي ذلك اليوم حمل إثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارثلميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبارك ، بعد أن أبعدوا جميع المسيحيين الآخرين ، وكان من بين الاثني عشر أسقف أورانج وريمون دي جيل كاتب هذه السطور ، وريموند صنجيل ، وبونز اوف بالازون وفارالد اوف ثوارز.

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويئس بعضنا من إخراج الحربة من باطن الأرض ، وفي تلك الأثناء ، وبعدما ذهب الكونت إلى حراسة القلعة ، اقنعنا عمالا جددا بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبوا ، وحفروا بكل جد وشدة ، غير أن بطرس بارثلميو المتلىء شبابا ، تجرد عندما رأى الاجهاد وقد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، ووضع جانبا ثيابه الخارجية ، ونزل إلى الحفرة حافي القدمين وليس عليه إلا قميص ، ثم توسل إلينا أن نصلي للرب ليعيد حربته إلى الحجاج ، ليجلب لشعبه القوة والنصر ، وأخيرا ،أظهر الرب لنا برحمته المباركة حربته ، وقبلت أنا ريمون مؤلف هذا الكتاب سن الحربة عندما برز من الأرض ، ومن غير الممكن لي وصف السعادة والابتهاج اللذان غمرا انطاكية ، لكن يمكن لي ان أؤكد أن الحربة قد اكتشفت في اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من تموز .

ووقف في الليلة التالية اندروز المبارك امام الشاب الذي كشف عن

الحربة وقال له : انتبه قد أعطى الرب الحربة للكونت ، وحقا اقول : إنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما وجعله قائدا للحجاج شريطة أن يكرس نفسه للرب ، وعندما طلب بطرس بارثلميو الرحمة للمسيحيين أجابه أندروز المبارك : حقا إن الرب سيكون رحيما بشعبه .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : من كان الشخص الذي رأيته يصاحبك بشكل متكرر ؟ فرد عليه اندروز المبارك بقوله : اقترب وقبل قدمه ، فاقترب البروفانسي ، فرأى مابدا له جرح حديث ودم في قدمه ، فتراجع بسبب ذلك المنظر الدموي ، وهنا أمره أندروز المبارك قائلا : انظر إلى الرب الذي سمر على الصليب من أجلنا ، وتحمل منذ ذلك الوقت هذا الجرح ، فضلا عن ذلك إن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، في ثامن أيام العيد من الأسبوع المقبل ، لأن استخراج الحربة وقت صلاة العتمة يمنع الاحتفال في ذلك اليوم ، وبعد هذا إنك ستحتفل كل عام بيوم اكتشاف الحربة ، ثم أبلغ المسيحيين أن يكبحوا جماح انفسهم حسبما تعلمهم رسالة أخي بطرس (كانت تلك الرسالة تعلم : تواضعوا تحت يد الرب القوية) كما أن الكهنة سيرتلون كل يوم بالترتيلة التالية :

وعندما يصلون إلى قولهم :

عليهم أن يجثوا على ركبهم وينحنون مختتمين الترتيلة .

وفيما بعد عندما استفسرت أنا وأسقف أورانج من بارثلميو عما إذا كان يعرف خدمة القداس الكنائسي ، فإنه إحساسا منه بأن الاجابة بالايجاب لن تقابل بالتصديق أجاب : أنا لاأعرف ، ومع أنه

- ٢٦٢٩ -

كان يعرف بعض الطقوس كان حينئذ مرتبكا جدا إلى درجـة انه لم يتذكر القداس الكنائسي أو يذكر بالمرة ماتعلمه منه باستثناء :

ونسي كل ماسوى ذلك ، ولم يتـذكر فيمـا بعـد إلا عدة كلمـات بصعوبة .

الفصل الثامن

هزيمة كربوغا

في تلك الأيام عز الطعام وأصبح نادرا جدا ، حتى بيع رأس الحصان بدون لسان بإثنين أو ثلاثة صولدي ، وامعاء الماعز بخمسة صولدي ، والدجاجة بثمانية صولدي أو تسعة ، وما الذي يمكن أن أقوله عن الخبز عندما يأكل المرء ماقيمته خمسة صولدي ويستمر جائعا ، أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو حتى مرهقا لهم دفع التكاليف الباهظة ، وهكذا ارتفعت الأسعار وزادت لأن ضمائر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية ، لقد كانوا يجمعون التين الفج ويطهونه ثم يبيعونه ويسلقون جلود الماشية والخيول والنفايات الصالحة للأكل ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أي إنسان كان يمكنه أن يأكل أي كمية تكلفه صولدين ، بيد أن أغلب الفرسان ، الذين يرجون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمائهم ،

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه البلايا وغيرها مما لايستطاع ذكره لما فيه من بؤس ، تقض مضاجع المسيحيين ، لجأ بعض رجالنا إلى الخيانة ، فأبلغوا الأتراك بحالة البؤس التي تعيش فيها انطاكية ، فزادوا بذلك من همومنا وضاعفوها ، وشجعت هذه الأخبار الأتراك ودفعتهم إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم ، ووقع احدها في ظهيرة احد الأيام ، عندما اعتلى ثلاثون منهم احد ابراجنا ، وأوجدوا لبعض الوقت حالة شديدة من الذعر ، غير أن قواتنا التي تعرضت للمخاطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، ودفعوا بالآخرين بعيدا عن الشرافات ، ووعد في ذلك

الوقت جميع حملة الصليب باتباع أوامر بوهيموند لمدة خمسة عشر يوما بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يتدبر أمر حماية أنطاكية ، ويضع خطط القتال ، وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركي ، ومرض الكونت ريموند وأدهمر ، وفرار ستيفن أوف بلوا ، وأذكركم : إن ستيفن قد فر على الرغم من اختياره قائدا مسيحيا قبل سقوط أنطاكية ـ نتيجة للأقاويل بقرب وقوع المعركة ، وكما حكينا ، جاءت معونة السماء الى مسيحيينا المرعوبين والمثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارثلميو ، الذي اكتشف الحربة ، وكان يسدي إلينا بالنصح حول الذي علينا فعله قبل المعركة وفي أثنائها ، فلقد أخبرنا أن المبارك أندروز قد قال : إن الجميع قد حاق بهم غضب الرب كثيرا ، فوقع عليهم العذاب ، أما أنت فقد صليت إلى الرب واستمع الرب إليك ، والآن فليهجر كل منهم الآثام وليتوجه إلى الرب ، وليقدم خمس صدقات ، بسبب جروح الرب الخمسة ، واذا عجز عن ذلك فليردد ابانا Pater Noster خمس مرات ، وبعد اكتمال تنفيذ هذه الأوامر ، ابدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبدأ نهارا أو ليلا ، وفقا لخطط القتال التي وضعها الامراء ، لان يد الرب ستكون معكم ، و مع هذا اذا ما ارتاب واحد في نتيجة المعركة ،فلتفتحوا الأبواب و تدعوها تجري إلى الأتراك حيث سيحميهم «الله» ، و أكثر من هذا ، ليكن أي متخاذل لا يقدم على القتال مع يهوذا خائن يسوع المسيح ، الذي تخلى عن الرسل و باع المسيح للهيود ، و بالصدق أجعلهم يتقدمون الى المعركة ، بايمان بطرس المبارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره في اليوم الثالث ، دعهم يتقدمون الى القتال ، لأن هذه الأرض ليست أرضا وثنية ، بل تدخل في اختصاص القديس بطرس ، و ليكن شعار التجمع بينكم « ساعدنا أيها الرب » و لسوف يساعدكم الرب فعلا ، و سيقاتل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ،تحت قيادته ضد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاتلون أنتم العشر الباقي ، بادروا الى القتال حتى لا يقود الرب عددا مساويا من الاتراك ضدكم ،

ويحاصر انطاكية حتى ياكل بعضكم بعضا ، كونوا على اطمئنان ان الايام التي تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، انها الايام التي سيطيح بها بمملكة الوثنيين وسيسحقها تحت قدميه ، ويرفع فيها الامارة المسيحية ، انما عليكم الاتنصرفوا الى خيام العدو طلبا للذهب والفضة .

ثم تجلت يد القدرة الربانية ، فالذي امرنا بالاوامر السالفة اعلنها لنا عن طريق القديس اندروز ، مما شجع القلوب وشحنها بالايمان والامال ، الى حد ان كل مسيحي شعر انه قد احرز نصرا ، فعادت الى الجميع حماستهم الى القتال عندما راحوا يشجعون بعضهم بعضا ، واصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد اصاباها بالشلل منذ عدة ايام فقط ، تسأل عن اسباب تأخير المعركة وتتهجم على الامراء ، وبناء عليه حدد الزعماء تاريخ المعركة ، ثم ارسلوا بطرس الناسك الى كربوغا حاكم الموصل ، ومعه اوامر بان يتخلى عن حصار انطاكية ، لانها كانت تدخل في نطاق مسؤولية القديس بطرس والمسيحيين ، غير ان كربوغا المتغطرس اجاب انه سواء اكان على حق ام على باطل ، يرغب في ان يصبح سيدا على المدينة وعلى المسيحيين الفرنجة ، وارغم بطرس الناسك على الركوع امامه.

وفي تلك الاثناء برزت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة انطاكية من هجمات القوات التي في القلعة ، في حين تخرج قوات اخرى الى ميدان القتال ، ولهذا تمت اقامة سور حجري وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وقويت هذه التحصينات بالصخور وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت طولوز ، وكان مصابا بمرض خطير ، وترك معه مائتين من الرجال ، وجاء اليوم المحدد للمعركة ، وتناول الجميع القربان الرباني في ذلك الصباح ، وخضعوا لارادة الرب ، وحتى للموت اذا اراد ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية ولجنس الفرنجة .

وتم تنظيم المعركة على اساس رتلين مزدوجين من البروفانسيين من قوات ريموند وادهمر مع رجالة في المقدمة ، يهاجمون او يتوقفون وفقا لاوامر قادتهم ، ثم يليهم في الساقة الفرسان ، وسارت قوات بوهيموند بهذا الاسلوب القتالي نفسه ، وكذلك قوات تانكرد وكونت نورماندي ، والفرنجة والدوق والبرغنديين ، واندفع المنادون في انطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده ، وكان نظام الزحف حسبما يلي : هيو العظيم ، كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي اولا ، ثم الدوق والاسقف ، واخيراً بوهيموند ، وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم دون المدينة وامام باب الجسر .

اه كم هي مباركة هذه الامة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذي اختاره لميراثه ، ولكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخي الى النشاط والمعركة ، فقبل ايام عدة كان القادة والنبلاء يسيرون في شوارع انطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون في المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ويلطمونها ، وكان قد بلغ من بؤس المسيحيين وشقائهم ان الاب وابنه والاخ واخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية والنظرات ، وهم يمرون في الشوارع ، ومع التبدل المفاجيء في الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كخيول نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون بكل صخب بالكلام والسلوك ، ولكن لماذا نؤخر اكمال حكاية هذه القصة ؟ يكفي القول : ان الرغبة في القتال باتت الان امرا مفروغا منه ، وكانت خطط القادة تنفذ.

وفي الوقت نفسه ، وبينما كان كربوغا يلعب الشطرنج في خيمته تواتر وصول الاخبار اليه بأن الفرنجة كانوا خارجين الى القتال ، فاضطربت نفسه لهذا التحرك غير المتوقع ، فاستدعى مجير الدين وهو لاجيء تركي من انطاكية ، وشجاع مقدم معروف ، وسأله : مالذي يحدث ، الم تخبرني ان المسيحيين الاقل عددا منا لن يقاتلوا ابدا ، لان عدد الفرنجة كان ضئيلا ؟! ورد مجير الدين على سؤاله هذا قائلا : لا ياسيدي اني لم ابلغك بشيء من هذا القبيل ، لكن تعال

معي فلسوف اراقبهم ، ومن ثـم انصـح لك وابين كيف يمـكنك ان تتغلب عليهم بيسر وسهولة .

وعندما تقدم الصف الثالث من حجـاجنا ، اسـتطلع مجير الدين صفوفنا ثم ابلغ كربوغا : ان المسيحيين سيموتون قبل ان يفـروا ، وسأله كربوغا بدوره : الا يمكن دفـع بعض المسـيحيين الى الوراء قليلا ؟ ورد مجير الدين : لو اندفع العالم كله ضدهم ما تزحزحوا قيد انملة .

وعلى الرغم من خوف كربوغا فانه صف جيشه الكبير ووضعه في وضع قتالي ، واذن لحملة الصليب بـالخروج مـن انطـاكية دونمـا مضايقات ، مع انه كان يستطيع سد الطريق بوجههم ، ونقلت قواتنا على الفور خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت على بعـد ميلين كاملين من الجسر ، وذلك خشية منها ان تتعرض لحركة التفاف من الخلف ، ثم تقدمنا في موكب يشبه تمـاما رجـال الدين ، ولاغرو انه كان موكب حقا : سار الكهنة والكثير من الرهبـان وهـم يرتـدون القمصان البيضاء امام صفوف فرساننا ، وهـم يرتلون وينشـدون العون من الرب مع حماية القديسين ، وعلى الرغم من ذلك هـاجمنا الاتراك واطلقوا علينا نشابهم ، واقترح كربوغا الذي لم يعد بامكانه تجاهل الزحف المسيحي اقترح على قادتنا ان يقاتل خمسة او عشرة من الاتراك العدد نفسه من الفرنجة ، مقابل ان يغـادر الجيش الذي انهزم ممثلوه من الفرسان ميدان المعركة بسلام ، واجاب رجـالنا : لقد رفضت ذلك عندما اردناه ، والان بما اننا على اسـتعداد للقتـال فليقاتل كل انسان في سبيل حقوقه .

وكما ذكرنا من قبل ، كنا مصطفين على السهل عندمـا هـاجمت كتيبة من الاتراك ، كانت قد جاءت من خلفنا ، فرقة من الرجـالة ، انعطفت وقابلت الهجوم بكل شجاعة ، وعندما عجزت قوات الاعداء عن القضاء على الرجالة اشعلوا نارا حولهم حتى تحصد النيران من

لايخشى السيف ، ولان الاعشاب كانت جافة تماما فقد جرى انسحاب اجباري .

ووقف مع جيشنا خارج انطاكية الكهنة حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ، وقفوا فوق الاسوار يبتهلون الى الرب ان يحمي شعبه وان ينصر الفرنجة نصرا يأتي دليلا على العهد الذي عمده بدمه ، ولدى زحفنا من الجسر الى الجبل قاتلنا قتالا شديدا لاحاطة الاتراك بنا ، وفي تلك الاثناء ، اندفع الاعداء مهاجمين الذين كانوا منا في صفوف ادهمر ، وعلى الرغم من تفوقهم العددي فإنهم عجزوا عن جرح اي واحد من رجالنا لانهم لم يتمكنوا من تسديد نشابهم نحونا ، ولاشك ان مرد ذلك الى الحماية المقدسة لنا ، فقد كنت شاهدا على هذه الحوادث ، كما كنت حاملا للحربة المقدسة ، واكثر من ذلك لئن كانت الاشاعة قد ترددت ان هرقل حامل راية الاسقف قد اصيب اثناء القتال ، ليكن معروفا انه اعطى رايته الى شخص اخر ، ووقف بعيدا عن صفوفنا .

ولما اصبح جميع رجالنا خارج انطاكية ، شكل قادتنا ، كما سلف بنا الذكر ، ثمانية صفوف ، لكن مالبث ان ظهرت بين صفوفنا خمسة اخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثلاثة عشر صفا ، ثم انني لن افوت الحديث على الحدث التالي ، ولانه جدير بالتنويه لن امر به مرور الكرام : لقد انزل الرب على المسيحيين الزاحفين نحو القتال مطرا خفيفا ، فابتهجوا لسقوطه ، وكانت قطرات هذا المطر تجلب لمن تمسهم قوة وخفة ورشاقة حتى انهم صاروا يحتقرون العدو ، ولقد هاجموه كما لو كانوا قد دربوا على الطريقة الملكية وتربوا ، وكان لهذا الرزاز من المطر تأثيرا على خيولنا لايقل اعجازا ، ودليل ذلك انني اسأل : اي حصان انهار قبل القتال ، على الرغم من انه لم يكن قد اكل غير لحاء الشجر واوراقه لمدة ثمانية ايام ؟! ولأن الرب قد اضاف جنودا الى جيشنا فقد تفوقنا عدديا على الاتراك ، مع اننا كنا قبل ذلك نبدو اقل عددا .

وعند اكتمال تقدمنا وانتظام تشكيلنا القتالي ، هرب العدو دون ان يعطينا الفرصة للقتال ، فكان ان طاردتهم خيولنا حتى غروب الشمس ، وجاء صنيع الرب مع الرجال والخيول مدهشا ، حيث لم يعق الجوع والجشع الرجال ، واذا بالخيول التي لم تأكل منذ فترة ، والتي قادها اصحابها بعيداً عن العلف القليل الى ميدان المعركة ، اذا بها تطارد اسرع الخيول التركية ، وصنع لنا الرب حدثا سعيدا اخر ، وهو ان المدافعين عن القلعة عندما شاهدوا فرار رجال كربوغا تولاهم اليأس فاستسلموا ، واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم ، بينما لاذ اخرون بالفرار على وجه السرعة ، وعلى الرغم من شدة هذه المعركة وفظاعتها ، فان قلة من الفرسان الاتراك قد هلكت ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر لم ينج بحياته احد من الرجالة ، وفضلا عن ذلك كانت الغنائم تتضمن كل خيام الاتراك مع الكثير من الذهب والفضة ، وكميات لاتقدر من الحبوب ، واعدادا لاتحصى من الماشية ، والجمال ، فذكرتنا بفرار السريان في السامرة ، عندما كان صاع الدقيق والشعير بشيكل وقد وقعت هذه الأحداث في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص(٢٦ رجب ٤٩١ هـ / ٢٨ تموز ١٠٩٨ م). وكان موائما ، لأنه من خلال هذين الشفيعين المقدسين جلب الرب يسوع المسيح هذا النصر الى كنيسة الحجاج الفرنجة ، حقا كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مع عبيده ويسكن معهم الى ابد الآبدين.

الفصل التاسع

وفاة أدهمر والابلاغ عن رؤى

استولى في أعقاب الانتصار : بوهيموند ،والكونت والدوق وكونت فلاندرز على القلعة من جديد ، غير أن بوهيموند أضمر شرا دفعه إلى اقتراف الاثم ، فقد استولى على الأبراج الشاهقة ، وطرد بالقوة أتباع غودفري وكونت فلاندرز وكونت صنجيل من القلعة مسوغا عمله بأنه كان قد تعهد (للأرمني) رجل الأتراك الذي سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذي سيمتلكها ، وتشجع بوهيموند بهذا العمل الذي مر بدون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية التي يحميها ريموند وأدهمر وغودفري منذ أيام حصار كربوغا ، واستسلم الجميع باستثناء الكونت ، فعلى الرغم من حالة المرض والضعف التي كان يعاني منها ، لم يرغب ريموند بالتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات والوعود والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الداخلي الذي قوض أسس العلاقات الودية بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الرفاق أو الخدم على السرقة أو العنف ، وفي عدم وجود قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، أصبح كل شخص قانونا في حد ذاته ، وفي ظل هذه الظروف لم يكن الكونت المريض ولا الأسقف يوفران حماية كبيرة لأتباعهما ، لكن لم نشغل أنفسنا بمثل هذه الترهات الصغيرة، المهم أن الحجاج الذين باتوا الآن يرفلون في الثراء والخمول ، أجلوا الرحلة ـ خلافا لأوامر الرب ـ حتى أول تشرين الثاني ، ونحن نعتقد أن الفرنجة لو تقدموا مامن مدينة بين أنطاكية والقدس كانت ستلقي عليهم حجرا واحدا ، فقد كانت مدن المسلمين تعيش وقتئذ في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا .

وانتقل في هذه الاثناء الى الرب بسلام الورد أدهمر ، وذلك في الأيام الأولى من شهر آب ،وأدهمر هو أسقف لى بوي المحبوب من الرب والناس أجمعين ، والذي رآه الجميع منزها عن الخطأ ، وحزن عليه المسيحيون جميعا حزنا عظيما عندما مات ، ومع أننا كنا شهود عيان له ، لم نستطع وصف ردود الأفعال عندما شرعنا في تسجيل عظمة الأحداث ، ولقد أثبت حادث تشتت القادة في أعقاب موت أدهمر ، و عودة بوهيموند الى كليكيا ، وسفر غودفري إلى الرها ، كم كان أدهمر مفيدا لجند المسيح ولقادتهم .

وفي الليلة التالية لدفن الأسقف في كنيسة بطرس المبارك في أنطاكية ، تجلى الرب يسوع وأندروز المبارك وأدهمر في كنيسة ريموند لبطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كان قد حدد موقع الحربة في أنطاكية ، ثم قال أدهمر لبطرس : الشكر للرب ولبوهيموند ولكل أخوتي الذين خلصوني من الجحيم ، فبعد اكتشاف الحربة ، أمعنت في اقتراف الآثام وألقي بي لذلك في الجحيم ، وجلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى لقد احترق رأسي ووجهي وبقيت روحي في الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدي ، حتى أعيد جسدي التعس إلى التراب ، وإن الثوب الذي تراه الآن علي هو ثوب أعاده الرب إلي وأنا في لهيب جهنم لأنني أثناء ترسيمي أسقفا كنت قد أعطيته إلى أحد الفقراء ، شكرا،فعلى الرغم من أن جهنم كانت تغلي ، وكلاب جهنم تزمجر في وجهي ، إنها لم تصب مني أي شيء تحت الثوب ، ولم ينفعني من كل الأشياء التي حملتها من وطني شيء مثلما أفادتني شمعة وهبها أصدقائي تقدمة لي ، مع الدنانير الثلاثة التي تصدقت بها للحربة ، فقد أحيتني هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم ، وقل لمولاي بوهيموند قد قال إنه سيحمل جسدي إلى بيت المقدس ، ومن أجل خاطره إنه لن ينقل جثماني من مقره لأن بعض دم الرب الذي أصبحت به الآن مرتبطا مازال هاهنا .

غير أنه إذا كان يشك في أقوالي فليفتح قبري ، وعندها سيرى

رأسي ووجهي المحترقين ، ولقد عهدت بأتباعي واوصيت مولاي الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الرب به رحيما ويفي بوعوده ، كما ولا ينبغي لأخوتي أن يحزنوا لموتي لأني سأكون أكثر نفعا لهم وأنا ميت مما كنته حيا ، وإذا رغبوا في المحافظة على قوانين الرب ، فسأعيش أنا وجميع أخوتي الراحلين معي ، ولسوف أظهر وأقدم نصحا أفضل مما كنت أقدم وأنا بين الأحياء ، فأعيروا يا اخوتي اهتمامكم لآلام الجحيم الثقيلة المخيفة ، واعبدوا الرب ، مخلص الانسان من هذه الآلام وسواها ، فالسعيد حقا من ينجو من عقوبات الجحيم ، وسيستطيع المخلص منح عفوه لمن حافظوا على وصاياه ، وعليكم الحفاظ على هذه النقاط المتساقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر ، بما أنني قدمت فلينتخب الكونت ورجاله الأخيار أسقفا بديلا لي ذلك أنه لايليق أن يبقى كرسي أسقفية تابع لمريم المباركة شاغرا بدون أسقف ، واعطوا واحدا من أرديتي إلى كنيسة القديس أندروز .

ثم سلم أندروز المبارك تحياته واحتراماته واقترب وقال موصيا :
« اهتموا بكلمات الرب التي أنطق بها ، وتذكر ياريموند الهدية التي عهد بها الرب إليك ، وليكن كل ماتفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وافعالك ، ويقبل صلواتك ، كانت نيقية اول مدينة منحها الرب إليك ، هو الذي حولها إليك ، لقد منحك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك ، حتى تتنكر له بعد ذلك في هذا المكان ؟ أم لأن أعمال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معونة الرب كان يعاقب ؟! وعلى الرغم من ذلك إن الرب بكرمه وإحسانه لايريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ماتطلبون ، بل وأكثر مما تجراتم على طلبه ، فهو قد سلمكم الحربة التي اخترقت جسده الذي سال منه دم الفداء لنا ، وتذكروا أن الرب لم يمنحكم هذه المدينة لتدنسوها كمافعلتم في الأخرى ، ويمكنكم بكل تأكيد أن تتيقنوا أن الرب لم يمنحكم إياها لمزايا فيكم .

إن الرب يأمر يا ريموند أن تعرف من الذي يطمح أكثر من سواه

في حكم أنطاكية ، وتستفسر عن دور الرب في حكمه ، لذلك إذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الآن الحراس الأوصياء على أنطاكية ، من يمكنه القيام بإخلاص على عدالة الرب ، فسلموا له المدينة وأعطوه إياها ، لكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، مزدريا بذلك العدالة وحكمها ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، ولسوف يقدمها لك ، ولن يخذلك الأتقياء والذين يعبدون الرب حقا ، أما غير الأتقياء فيمكنهم أن يعودوا إلى من هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سيعذبهم الرب ، ستنزل بهم حقا اللعنة نفسها التي انزلها الرب وأمه بابليس الذي هوى ، فاذا كنتم متفقين ، اطلبوا النصح في الصلاة

وسيقدمه الرب لكم وإذا كنتم متفقين ، فاعقدوا مجمعا من أجل اختيار بطريرك لناموسكم ، وإياكم أن تمنحوا الغفران للأسرى الراغبين بالتمسك بوصاياكم ، ولاتبقوا على الذين اتبعوا القرآن ويتولون عبادة « الله » الذي يعبده الأتراك ، انظروا إليهم كأتراك ، وابعثوا باثنين أو ثلاثة إلى السجن وسيرشدونكم إلى الآخرين ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة اطلبوا مشورة الرب بشأن رحلة الحج ، وسيمحضكم الرب النصح ، إنما إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، لن تصلوا إلى القدس ولو بعد عشر سنوات مع أنها لاتبعد عنكم إلا عشرة أيام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهم عليكم ، أضف إلى هذا عليكم ياعبيد الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، فكما استجاب لصلواتهم سيستجيب إلى صلواتكم .

أما أنتما ياريموند وبوهيموند فاذهبا إلى كنيسة أندروز المبارك فسيعطيكما أفضل نصيحة من الرب ، واتبعا ما يضعه الرب في قلوبكما ، وبعد هذه الرؤيا المباركة لأندروز المبارك تذللا أمامه ، ليس أنتما فقط ، بل إجعلا جميع إخوانكما يفعلون ذلك أيضا ، واجعلا بكل وسيلة السلام وحب الرب يسود بينكما ياريموند وبوهيموند ، لأنكما إذا اتفقتما ، لن تستطع قوة أن تحطمكما ، وجدير بكما أن تعلنا عن العدالة التي من المتوجب أن تقيمانها : إجعلا جميع الرجال الموجودين يعلنون على الملأ بوساطة أسقف كل

منهم مبلغ ثرواتهم وقيمتهـا ، وأن يسـاعدوا الفقـراء كل حسـب مقدرته ، وحسب الحاجة إلى هذه المساعدة ، وتصرفوا وفقا لاتفاق عام ، وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القـاعدة وغيرهـا مـن القـواعد العادلة ، اكبحوا جماحهم ، وإذا مارغب أي واحد منهم في امتـلاك أية مدينة « منحها الرب من أجل المسيحيين فليسـلك المسـلك الذي يتفق مع الوصايا المذكورة ، وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت مـع أبناء الرب ».

وفي البداية لاقت وصايا وتنبيهات القديس أندروز التصديق ، بيد أن سرعان ماغدا نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الحجاج : فلترد أنطاكية إلى ألكسيوس ، غير أن آخرين اعتـرضوا.وأثناء حصـار عرقة فيما بعد ، بينما كان بطرس بارثلميو يرقد على فراش الموت ، استدعى الكونت وأوصاه بقوله : عند وصـولك إلى القـدس وجـه أوامرك إلى الجيش للصلاة إلى الرب حتى يطيل عمـرك ، ولسـوف يضاعف الرب حياتك ، ولدى عودتك ضع الحربة على بعـد خمسـة فراسخ من كنيسة القديس تروفيموس ، ومـر ببناء كنيسـة هناك ، وأوقف ـ بيمين ـ مالا كثيرا عليها .

و اياك أن تسمح باقتراف أي إثـم في هـذا المكان ، و أطلق على هذا المكان اسم جبل البهجة ،و لعل هذه الأشياء تنفذ في بـروفانس لأن بطرس المبارك وعد حـواريه تـروفيموس أن يسـلمه الحـربة المقدسة

واهملت مصالح المعدمين « الطافور » بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص الوصية التي تلقاها القادة مـن القـديس اندروز ، وفي تلك الاثناء حاصر اتراك حلب قلعة تسمى عزاز ، وقلق الاتراك المحاصرون داخلها واشتد عليهم الامر فطلبوا من غودفـري الذي كان في منطقة قريبة منهم ان يسلموه قلعتهم ، لانهم يفضـلون سيدا فرنجيا ، وبناء عليه استدعى الدوق لدى عودتـه الى انطـاكية ريموند الذي كان قد تعافى من مرضه ، واسـتدعى هـو معـه جميع

فرسانه ورجالته الذين كان الكونت قد قادهم الى اراضي المسلمين لنهب الارياف لصالح المعدمين ، كما والح في طلبه من ريموند الاسراع من اجل الرب ، ومن اجل شرف جيش الفرنجة في التوجه الى مساعدة الاتراك المرتدين ، الذين كانوا انذاك يستصرخون الرب ، واوضح ايضا ان الاتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة الاف القوات المحاصرة لهم ، وسار الكونت نتيجة لهذه المطالب ومعه غودفري ، وتخلى الاتراك عن حصار عزاز لدى سماعهم بهذه الانباء ، وبناء عليه عند وصول جيشنا اليها ، اخذ الدوق رهائن من القلعة لضمان ولاء عزاز له في المستقبل ، وعاد ريموند الى انطاكية بعد ما تكبد جيشه نفقات كبيرة ، وهنا استدعى فرسانه لكي يقود الناس المعدمين الى اراضي المسلمين بعدما تدنت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب .

وفي الوقت نفسه تجلى القديس اندروز لبطرس بارثلميو في خيمة في قلعة الروج التي كان يحتلها اسقف أبت وريمون دي جيل كاهن الكونت ، وكان اسم الاسقف سيمون ، وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس اندروز وبطرس ستر راسه ، وكما قال فيما بعد : انه سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يتذكر الا : سيدى ، انني اقول ....

ومع ذلك ، اضاف اسقف ابت : انني لست على يقين فيما اذا كان مارايته حلما ام لا ، لكنني رايت رجلا متقدما بالسن يرتدي عباءة بيضاء ويمسك بين يديه حربة الرب المقدسة ، وقد سالني : هل تؤمن بان هذه الحربة هي حربة يسوع المسيح ؟ فاجبته بقولي : نعم انني اومن بذلك ياسيدي ، ولدى تكراره السؤال مرة ثانية وثالثة اجبت قائلا : حقا انني مؤمن بان هذه هي الحربة التي اسالت الدم من جنب يسوع المسيح ، وهو الدم الذي افتدى به الجميع .

ثم حركني ـ ريمون دي جيل ـ اسقف ابت ، وكنت نائما على

مقربة منه ، وعندما افقت لاحظت الضوء غير العادي ، وشعرت كما لو ان النعمة الالهية قد حلت في روحي ، واستفسرت من اصدقائي الحضور عما اذا كانوا يشعرون كما انهم بين مجموعة تحركها عاطفة هائلة ، فاجابوني جميعا : لا ، حقا ، وبينما كنت اردد ماسبق ، اجاب بطرس متلقي الوحي السماوي : انك رايت فعلا نورا مبهجا ، لان الرب صاحب النعم جميعا ، كان يقف في هذه البقعة لمدة طويلة .

وعندما طلبنا منه ـ بطرس ـ أن يسرد علينا كلمات زواره السماويين ذكر لنا وللكونت مايلي : جاء الى هنا في هذه الليلة الرب مع اندروز المبارك بشكلهما المعتاد ، وبصحبتهما رفيق صغير ، له لحية طويلة ، وكان يرتدي ثوبا من الكتان ، ثم ان اندروز المبارك زجرني بقسوة فقد اسخطه انني تخليت عن رفات جسده الموجود في الكنيسة في انطاكية ، وقد تهددني بعنف واستطرد يقول : بعدما القاني الكفار من فوق الجبال بدون خشية او احترام ، انكسر لي اصبعان ، وبعد موتي حفظهما هذا الرجل ، وبعد ذلك نقلهما الى انطاكية ، غير انك لم تهتم كثيرا بأثاري بعدما عثرت عليها ، فسمحت بسرقة احدهما ، ورميت بالاخر بشكل مشين ، ثم اراني يده التي كان ينقصها اصبعان .

ثم استطرد بطرس يقول : ايها الكونت ، لقد انتقدك القديس اندروز بكل شدة ، لانك لاتخشى من اقتراف الاثام الخطيرة والشريرة ، وذلك على الرغم من انك تلقيت الهدية التي لاتوصف والتي حفظها لك الرب وحدك ، وهذا هو السبب في ان الرب قد اعطاك العلامة التالية التي هي على وجه التحديد : قدمت منذ خمسة ايام في عيد القديس فيديس (٦ ـ تشرين اول) تقدمة كانت عبارة عن شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة ايام وثلاث ليال لتحترق ، ولكنها سرعان ماذابت وهوت الى الارض ، وحدث العكس هذه الليلة فقد قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفي للاحتراق حتى قبيل صياح الديكة تماما ،

وهى الان تشع بضوئها ولم ينب ثلثها حتى الساعة مع ان ضوء النهار قد اشرق الان .

وبناء عليه يطلب منك الرب الاشياء التالية : عليك قبل كل شيء التكفير عن ذنوبك ، ولاتفعل شيئا قبل ذلك واذا لم تلتزم حبطت مشاريعك واعمالك ستكون مثل شمعة ذائبة تهوي الى الارض ، وسيجعل الرب اعمالك كلها تامة وناجحة باسم الرب اذا مالتزمت ، وسيضاعف الرب جهودك الصغيرة كما جعل هذه الشمعة الصغيرة التي تراها تبقى وقتا مديدا .

وعلى الرغم من ان ريموند أنكر جسامة اثامه ، فانه اعترف وكفر عنها بعدما واجهه بطرس بارثلميو بذنوبه ، واستمر بطرس في توجية خطابه الى الكونت قائلا : ايها الكونت ان اندروز المبارك يعترض على مستشاريك ، لانهم قدموا نصيحة سوء لغرض ما ، ولذلك انه يأمرك ان تتجاهل مشورتهم الا اذا اقسموا على الا يعطوك نصحية غير طيبة وهم يعلمون ذلك .

اصغ الي جيدا يا ريموند : ان الرب يأمرك الا تضيع الوقت ، لانه سيساعدك فقط بعد الاستيلاء على القدس ، ولاتجعل واحدا من الحجاج يقترب اكثر من فرسخين عندما تدنو من القدس ، واذا نفذت هذه التعليمات فان الرب سيسلمك المدينة .

وبعد هذه الاوامر شكرني القديس اندروز كثيرا لانني حققت تكريس الكنيسة التي شيدت باسمه في انطاكية ، ولم يتكلم حول هذه الامور فقط بل تناول بالحديث امورا اخرى لاتعنينا الان وبعد ذلك صعد هو ورفيقاه الى عليين.

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان

تقدم بعد هذا بأمد قصير ريموند وبصحبته الحجاج الفقراء (الطافور) وحفنة من الفرسان ، وتغلغلوا في أرض الشام ، حيث تم لهم الاستيلاء على البارة بكل شجاعة ، وكانت البارة أول مدينة اسلامية على طريقهوهنا قتل الآلاف واستعبد آلافا غيرهم ارسلهم ليباعوا كرقيق في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة ، وعمل ريموند إثر هذا برأي أمرائه وكهنته فاختار بطريقة تستحق الثناء كاهنا ليكون أسقفا للبارة ، فبعد اجتماع عام تسلق واحد من كهنة الكونت الأسوار ، ثم سأل هذا الكاهن عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الكونت واخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع.

ووسط الصمت الذي أعقب ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو بالأصل من أهل نربونة ، وأوضحنا له على الملأ عبء الأسقفية ، وشجعناه على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة إلى أن يموت ، وعندما وعد أنه سيقوم بذلك ، وافق الناس عليه بالاجماع ، وحمدوا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية ، ومنح ريموند بطرس النربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها.

وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية ، ومع اقتراب أول أيام تشرين الثاني ، وهو الموعد المحدد لتجمع الحجاج من جديد لمواصلة زحفهم ، ترك ريموند جيشه في البارة وعاد الى أنطاكية مع أسقفه الجديد بطرس وعدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة ، وفي

أنطاكية اجتمع الأمراء جميعا فيما عدا بلدوين أخو غودفري ، الذي سبق له أن اتجه ، بعدما انفصل عن جيش الحجاج الرئيس ، نحو الفرات ، وكان ذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وهناك استولى على مدينة الرها ذات الشهرة الواسعة والغنى ، وخاض بنجاح عدة معارك ضد الأتراك.

وقبل أن أنتقل للحديث عن أحداث أخرى لا بد من أن أروي لكم القصة التالية: عندما كان غودفري في طريقه الى أنطاكية مع اثني عشر فارسا ، قابل مائة وخمسين من الأتراك ، فلم يتردد مطلقا ، ولم يجبن بل أعد أسلحته وشجع فرسانه ، وهاجم العدو بكل شجاعة ، غير أن المسلمين آثروا ـ مرغمين ـ الاختيار الأحمق للموت بدلا من النجاة بالفرار ، فترجل بعضهم لكي يطمئن الأتراك الخيالة الى أن رفاقهم الرجالة لن يتخلوا عنهم ويلوذوا بالفرار ، ونشب قتال عنيف هاجم خلاله فرسان غودفري العدو بكل شجاعة ، وكان عدد هؤلاء الفرسان يساوي عدد الرسل الأثني عشر ، كما كانوا يؤمنون بكل يقين أن الدوق هو كاهن الرب ، ووهب الرب الدوق نصرا مبينا ، حتى أنه قتل حوالي الثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدو وطارد الهاربين ، فقتل عددا كبيرا منهم أو سبب غرقهم في المستنقع والنهر القريبين ، وعاد غودفري الى أنطاكية ظافرا في نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء رؤوس رفاقهم القتلى.

وعقد الأمراء اجتماعا في كنيسة بطرس المبارك ، حيث أخذوا يخططون لاستئناف الزحف نحو القدس ، وسأل بعض من كانوا يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة في المناطق المحيطة بأنطاكية: ماذا سيتم بشأن أنطاكية ، من الذي سيحرسها ، ذلك أن الكسيوس لن يأتي ، وتذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة بقوته أو بجيشه الكبير ، هل سننتظره أكثر مما انتظرناه؟ من المؤكد أن من أجبر أخواننا ومن جاء الى مساعدة الرب على التراجع لن يقدم لمساعدتنا ، ومن جانب آخر: إننا إذا ما

تخلينا عن أنطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أشد ضررا وخطورة من الاحتلال الأخير ، لنعطها لبوهيموند ، فهو رجل عاقل وحكيم يخشى المسلمون جانبه ، وهو رجل سيحميها جيدا.

ولكن الكونت ومعه آخرين اعترضوا على ذلك قائلين: لقد أقسمنا على صليب الرب ، وأكليل الشوك ، وآثار مقدسة كثيرة ، أننا لن نحتفظ بدون موافقة الامبراطور ، بأي مدينة أو قلعة في مناطق نفوذه.

ولهذا انقسم الأمراء وتنافروا بسبب هذه الاختلافات ، وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يلجأون الى السلاح ، وفي الحقيقة لم يهتم غودفري وروبرت كونت فلاندرز كثيرا بمسألة أنطاكية ، وكانا يؤيدان سرا تملك بوهيموند لها ، ولكنهما خوفا من عار الحنث باليمين لم يتجرأ أي منهما على التوصية له بها ، ونتيجة لذلك تأجلت الرحلة ، وكل ما يتعلق بها من مسائل ، وكذلك الاهتمام بالفقراء (الطافور).

وبدأ الناس بعدما راقبوا عن كثب هذه الضجة بين الأمراء يصرحون أولا بشكل سري ثم جاهروا بعد ذلك قائلين: من الواضح أن قادتنا غير راغبين في قيادتنا الى القدس ، إما بسبب الجبن أو بسبب اليمين الذي أقسموه لألكسيوس ، لماذا لا نقدم نحن على اختيار فارس شجاع يمكن أن نعتمد عليه ونأمنه على أنفسنا ونحن في خدمته ، وبذلك سنصل بمشيئة الرب الى القبر المقدس معه وهو قائد لنا ، يا الهي ، لقد مضى عامان علينا في أرض المسلمين ، وفقدنا مائتي ألف جندي ، ألا يكفي هذا؟ لنترك الذين يطمعون بذهب الامبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصلون على ما يودون ، أما نحن الذين هجرنا أوطاننا في سبيل المسيح ، لنستأنف زحفنا معه قائدا لنا ، وليمت الطامعون بانطاكية في تعاسة وشقاء مثلما مات سكانها منذ أمد قصير واذا ما استمر النزاع حول انطاكية فلنهدم الأسوار ، عندها فقط سيعود زمن حسن الذوايا بين الأمراء

كما كان عليه الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، ولايمكن ذلك الا مع تدميرها ، والا فإن علينا ان نعود الى بلادنا قبل ان ينهكنا الجوع ويهدنا التعب.

وأثرت هذ الآراء وغيرها بريموند مع بوهيموند ، فعملا على تسوية الخلافات بينهما ، وفي تاريخ محدد صدرت الأوامر الى الناس بالاستعداد لاستئناف رحلة الحج ، وعند اكتمال كافة التفاصيل المتعلقة بالاستعداد للزحف ، تقدم كونت صنجيل مع كونت فلاندرز ومعهما الناس للدخول الى ارض الشام في اليوم المحدد ، وحاصروا اولا معرة النعمان الغنية وذات التعداد الكبير من السكان ، وتقع المعرة على ثمانية أميال من البارة ، وبسبب قتال سالف جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فادحة ، فقد عير أهل المدينة المتعجرفون قادتنا ، وشتموا رجالنا ، ودنسوا صلباننا أثبتت على أسوار المدينة ليثيروا غضبنا ، وفي اليوم التالي لوصولنا عظم غضبنا واشتد على أهل المعرة ، حتى أننا اندفعنا نحو الأسوار بشكل علني وكنا بلا شك ، سنستولي على معرة النعمان فقط لو أننا امتلكنا أربعة سلالم بالاضافة الى السلمين القصيرين اللذان كانا بحوزتنا ، ومع هذا صعد رجالنا سلمينا بخوف ، وقرر الأمراء بناء الآلات ، وبث الحسك ، واقامة حواجز ترابية يمكن منها أن نصل الى السور ، فنهدمه ونسويه بالأرض ، وبينما كان هذا يحدث ، وصل بوهيموند وحاصر قطاعا من معرة النعمان ، وكما ذكرنا من قبل ، لم تكن استعداداتنا كافية ، غير أنه بعد وصول الوافد الجديد تشجعنا لأن نفكر بشن هجوم جديد بواسطة ردم الخندق المليء بالماء والمحيط بالسور ، غير أن هجومنا الجديد ، كان أكثر تعاسة من الأول ولم يكن مجديا.

وإنه لما يحز بنفسي أن أذكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتبعثرون كالماشية في الحقول ، ينبشون ويبحثون عن حبوب القمح أو الشعير أو الفول أوأي خضراوات ، وعلى الرغم من استمرار العمل في اعداد الات

الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بالبؤس الذي ألم بهم وبجراة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأدبار.

غير أن الرب المحامي عن عباده ، أشفق الآن على شعبه ، عندما رآه في حمأة اليأس والقنوط ، وهكذا استخدم الرسولين المباركين: بطرس وأندروز ليبلغنا بمشيئته وبسبل تلطيف أمره القاسي ، ففي منتصف الليل دخلا الكنيسة الخاصة بالكونت ، وأيقظا بطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كانا قد أظهرا له الحربة ، غير أن بطرس بارثلميو الذي استيقظ فجاة ، اعتقد عندما رأى شخصين قبيحين في ملابس قذرة يقفان الى جوار الاناء الثمين الذي يضم الآثار المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، وكان القديس أندروز يرتدي قباء كهنوتيا قديما ممزقا عند الأكتاف ، فقد كان على الكتف الأيسر رقعة من القماش ، بينما كان الكتف الأيمن عاريا ، وكان يحتذي حذاءا رخيصا ، وكان بطرس يرتدي قميصا خشنا من الكتان يصل الى عقبيه ، وسألهما بطرس بارثلميو: من أنتما ياسيدي وماذا تريدان؟

وأجابه بطرس المبارك: اننا رسولا الرب ، أنا بطرس وهذا أندروز ، وقد اخترنا هذا الملبس حتى ترى المكاسب العظيمة التي ينالها من يخدم الرب باخلاص ، لقد قدمنا على هذه الحالة ، وفي هذه الهيئة الرثة ، بالضبط كما ترانا أنت ، الى الرب و الآن أنظر الينا ، وبعد هذ الكلمات أصبح بطرس وأندروز أكثر تألقا وأبهى مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، وخرّ بطرس بارثلميو الى الأرض كما لو كان ميتا ، وقد استبد به الرعب للوميض المفاجيء من النور ، ومن شدة خوفه تصبب منه العرق حتى بلل الحصيرة التي وقع عليها ، فساعده القديس بطرس على الوقوف وقال له: لقد وقعت بسهولة.

ورد بطرس بارثلميو: نعم يا سيدي ، ثم شرح القديس بطرس الأمر بقوله: هكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمر الرب ، غير

أن الرب سيرفعهم مثلما رفعتك بعد سقوطك ، إذا ندموا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب ، زد على هذا أنه لطالما عرقك على الحصيرة ، الرب سيرفع من يستغيثون به ويمحو ذنوبهم ، لكن أخبرني: كيف يتدبر الجيش أموره؟

وأجابه بطرس بارثلميو: بالتأكيد لقد أثارت المجاعة قلق أفراد الجيش ، وهم في تعاسة بالغة ، وهنا اندفع بطرس قائلا: إن الذين تركوا الرب وراء ظهورهم لابد من أن يخافوا ، لأنهم نسوا المخاطر التي أنقذهم الرب منها ، ولم يقدموا له الحمد والشكر ، إنك ناديت الرب عندما كنت راكعا ، وناديته عند أنطاكية ، حتى أننا سمعناك في السماء ، نعم لقد سمعك الرب وقدم لك دليلا على انتصاره لك ، وهكذا منحك نصرا رائعا ومجدا عظيما على الذين كانوا يحاصرونكم وعلى كربوغا. لقد أنيت الرب كثيرا ، الآن أي رب تؤمن به أنت بالذات حتى تأمن على نفسك؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة ، أو المغائر الخفية أن تحميك؟ إنك لن تكون في مأمن حتى في أشد المرتفعات منعة ولو كان معك كل ما تحتاج اليه من ضروريات ، لأن مائة ألف خصم سيهددون كل واحد منكم ، إن في صفوفكم القتل والنهب والسرقة ، فضلا عن انعدام العدالة كما أن هناك زنا ، مع أنه مما يسعد الرب أن تتزوجوا ، وفيما يختص بالعدالة إن الرب يأمر أن تكون جميع السلع الموجودة لدى الشخص الظالم المستبد بالفقراء ملكية عامة ، وأن تؤدوا عشوركم ، واعلموا أن الرب على استعداد لأن يعطيكم كل ما تحتاجون اليه ، إنه سيعطيكم معرة النعمان بسبب رحمته لا بسبب أعمالكم ، حاصروها الآن في أي وقت ترغبون ، افعلوا ذلك لأنكم ستأخذونها بدون ريب.

وفي الصباح التالي سمع الكونت بخبر هذ التجليات ، وبناء عليه قام ومعه أسقفا البارة وأورانج باستدعاء الناس جميعا الى اجتماع عام ، وتصدق المؤمنون تحدوهم الآمال الكبيرة بالاستيلاء على المدينة ، تصدقوا بسخاء ، وقدموا الصلوات الى الرب

القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل اسمه فقط ، وبعد استكمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة وأقيم برج خشبي ، وأقيمت السواتر ، وبدأ الهجوم عند نهاية اليوم ، وأطلق المحاصرون من داخل معرة النعمان الأحجار من المجانيق والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير على رجالنا الذين تمكنوا من تدمير اسوارهم ، وبفضل قدرة الرب ورحمته ، لم يصب أحد ، هذا من جانب ومن جانب آخر هاجم حملة الصليب الأسوار بكل جرأة ، واستخدموا الصخوروالسلالم في هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا مخيفا لم يسترح فيه احد ، ولم يشك أحد في نتائجه الظافرة ، وأخيرا ابتهل الجميع الى الرب أن يكون رحيما بشعبه وأن ينفذ وعود رسله.

وأعطانا الرب الموجود دوما المدينة حسبما وعد رسله ، وكان أول من تسلق الأسوار جوفييه أوف لاستورز ثم أعقبه مسيحيون آخرون هاجموا الأبراج والدفاعات ، غير أن الليل أوقف القتال وما زالت بعض أبراج المدينة وأجزاء من المدينة نفسها في أيدي المسلمين ، وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة في الصباح المقبل ، فارتعدوا وحرسوا الأسوار الخارجية للقضاء على أي شخص يحاول الهرب ، غير أن بعض حملة الصليب ممن لم يعبأ بحياته ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة استمروا في مقاتلة أهل المعرة تحت جنح الظلام ، وهكذا حصل الفقراء (الطافور) على حصة الأسد من الغنائم والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة ، وفي هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في مغائر تحت الأرض ، وبالفعل لم يظهر منهم أحد في الشوارع ، واستولى المسيحيون على جميع السلع التي كانت فوق الأرض ، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان والنيران والأبخرة الكبريتية على الأعداء لاخراجهم من مغائرهم ، وخيب نهبهم للمغائر امالهم ، وعندها

عذبوا كل واحد من المسلمين وصلت أيديهم اليه ، حتى الموت ، وجرب بعض رجالنا اقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة اماكن الثروات والذخائر الدفينة ، وكان المعريون يقودون أسريهم الى الآبار ، ثم يلقون أنفسهم فجأة ليلاقوا منيتهم ، مؤثرين بذلك الموت على كشف الذقاب عن أماكن الأمتعة والذخائر العائدة لهم أو لسواهم ، وهكذا لاقوا بسبب عنادهم الموت جميعا ، وقد رميت جثث المعريين في السباخ والاماكن الواقعة خلف الاسوار ، وعلى العموم ، ولما تقدم من أسباب لم تمنحنا المعرة الكثير من المنهوبات .

ومع ان فرسان بوهيموند لم يكونوا على درجة عالية من النشاط أثناء الحصار ، فقد نالوا عددا اكبر من الأبراج والخيول والأسرى ، وسبب هذا قيام شعور بالاستياء بين البروفناسيليين والنورمان ، وقضت ارادة الرب آنذاك أن ترينا أمرا معجزا .

وحسبما سلف بي الذكر ، وعلى الرغم من أننا شرحنا للناس قبل الاستحواذ على معرة النعمان الاوامر والتوجيهات الرسولية لكل من بطرس وأندروز ، لكن بوهيموند وأصحابه سخروا منا ، وفي الحقيقة شكل بوهيموند واتباعه النورمان عقبة ولم يكونوا عونا ، ولهذا كان من الطبيعي أن حاشية ريموند كانت غاضبة وغير راضية لان النورمان استحوذوا على الشطر الاعظم من الاسلاب ، وفي الختام اختلف المقدمون ، فقد عزم ريموند على اعطاء المعرة الى اسقف البارة ، غير ان بوهيموند تشبث بعدد من الابراج التي استولى عليها واطلق تحذيرا قال فيه : « إنني لن أتفق مع ريموند حول أي مسالة ما لم يتنازل لي عن ابراج انطاكية المحتفظ بها » وفي لجة هذه الفوضى والشحناء مضى الفرسان وعامة الناس يتساءلون متى سيتفضل السادة البارونات في استئناف الزحف ، لانه على الرغم من أن الزحف العام قد بدأ منذ أمد بعيد ، غير أن كل يوم بدا كما لو انه بداية حملة صليبية جديدة ، ذلك أن الهدف المنشود لم يتحقق بعد ، واوضح بوهيموند انه لن يستانف الرحلة

قبل عيد الفصح ، فقد حل الان عيد ميلاد مولانا المسيح ، وهكذا فقد عدد كبير الامل ، وتحولوا راجعين وذلك بسبب هذه المواقف وقلة الخيول ولغياب غودفري وهجرته مع عدد كبير من الفرسان الى بلدوين صاحب الرها .

وبعد لأي اجتمع اسقف البارة مع عدد من النبلاء وجمهور من المعدمين ، وطلبوا من الكونت ريموند تقديم العون ، فبعد ما فرغ الاسقف من عظته انحنى أمام الكونت الذي تسلم الحربة المقدسة ، والتمسوا منه ـ والدموع تنهمر من عيونهم ـ أن يجعل نفسه قائدا للجيش ومقدما له ، وذلك لما تضفيه عليه حيازته للحربة المقدسة من مزايا ، ولكونه محط فضائل الرب ونعمائه ، فانه لن يخاف من الاستمرار في قيادة الرحلة بامان مع حشود الفرنجة ، واذا ماتوانى تلكأ الكونت ريموند في تحمل اعباء ذلك يتوجب عليه تسليم الحربة لجمهور الحجاج ، فعندها سيستاذف هؤلاء زحفهم نحو الاراضي المقدسة تحت قيادة الرب ، ولاطفهم الكونت ريموند ، ولم يحدد موعدا لاستئناف الرحيل ، خشية منه الا يتبعه البارونات المسافرين ، لانهم كانوا ينظرون اليه بعين الحسد والغيرة .

ولنعمل على انهاء هذه الحكاية المحزنة ، فقد كانت الغلبة لدموع المعدمين ، واضطر ريموند الى تحديد يوم الخامس عشر موعدا لاستئناف الرحيل ، واثار هذا غضب بوهيموند ، فاعلن في جميع ارجاء المدينة ان تاريخ الرحيل سيكون اليوم الخامس او السادس ، ثم مالبث ان عاد الى انطاكية مباشرة ، وهنا انبرى ريموند مع اسقف البارة نحو الاهتمام بتجهيز الحملة ، واختارا الاشخاص وحددا عددهم ، وطلب الكونت ريموند ، في الوقت نفسه من غودفري والذين كانوا معه خارج معرة النعمان ، التجمع في مكان محدد واحد ومن ثم القيام باجراء الاستعدادات اللازمة لاستئناف الزحف .

ثم اجتمع البارونات وعقدوا مؤتمرا في قلعة الروج الواقعة في

منتصف الطريق بين انطاكية ومعرة النعمان ، بيد ان مؤتمرهم لم يسفر عن اتفاق ، لان المقدمين وعدد كبير ممن سواهم لاسيما من اتباعهم عرضوا العديد من المعانير التي تعوق استئناف الزحف ، ونتيجة لذلك دفع الكونت ريموند الى كل من غودفري وروبرت الذورماندي مبلغ عشرة الاف صولدي لكل واحد منهما ، ومبلغ ستة الاف لروبرت كونت فلاندرز ، وخمسة الاف لتانكرد ، ومبالغ مناسبة لاخرين فاشترى موافقتهم .

وفي تلك الآونة راجت انباء بين المعدمين افادت ان ريموند قد خطط لمركزة شحنة عسكرية في معرة النعمان تضم عددا من فرسان الجيش ورجالته ، وهنا سخط المعدمون ودارت الاحاديث فيما بينهم وقالوا : اذن هذا سر الامور ، خلافات ومشاحنات في انطاكية ، ومثل ذلك في معرة النعمان ، فهل ياترى ستتفجر النزاعات بين البارونات ، ومن ثم تتدمر جيوش الرب في كل مكان يمنحنا الرب اياه ؟ لنضع اذا احدا للصراع هنا ، وحتى يعم السلام بين القادة وتنعدم الشحناء ، ولتهدأ خواطر ريموند ويزول قلقه ، وكيما لايضيع الجيش ويتبدد ، هيا بنا لنقوض اسوار المعرة ونهدمها .

وهكذا هب الجميع حتى المرضى والضعفاء ، واقبلوا بعدما نهضوا من فراشهم واندفعوا نحو الاسوار وهم متكئين على عصيهم ، وشرعوا في تقويضها ، وكنت ترى الرجل الاعجف النحيف منهم يدفع نحو الامام ونحو الخلف الحجارة الضخمة ، ويلقي الى خارج الاسوار بحجارة لايكاد ثلاثة ثيران أو أربعة يزحزحونها في الاحوال العادية ، وتجول اسقف البارة ورجالات ريموند في المدينة ، وهم يحذرونهم ويطلبون منهم التوقف عن اعمال التخريب ، لكن الفقراء كانوا يهرولون مبتعدين عن الاسوار ويتخفون عند اقتراب الاسقف والجند ، انما سرعان ماكانوا يعودون ويستأنفون اعمالهم ، عندما يبتعد هؤلاء عنهم ، اما الذين كانوا يخشون العمل جهارة وكانت تشغلهم مشاغل اخرى ، فكانوا يعملون اثناء الليل ،

وهكذا كان الجميع يعلمون ولم يحل المرض او الضعف بين اي انسان وبين المساهمة في تدمير الاسوار .

ومالبث ان اصبح شح الطعام حادا الى درجة ان المسيحيين كانوا يأكلون بكل متعة وتلذذ جثث المسلمين الجائفة التي كانوا قد رموها في السباخ قبل اسبوعين أو ثلاثة ، وأثار هذا المشهد الاشمئزاز في نفوس العديد من الحجاج والغرباء ، ومع تزايد الشح بالمؤن ولتردي الاوضاع فقد الكثيرون الامل في وصول تعزيزات فرنجية فقفلوا عائدين ، وكانت ردات فعل المسلمين والاتراك وتعليقاتهم على ماشاهدوه قولهم : ان هذا العرق العنيد الذي لايعرف الرحمة ، ولم يزحزحه الجوع او السيف او شتى المخاطر لمدة عام عن اسوار انطاكية ، ويتلذذ بأكل اللحم البشري ، لايمكن ان يقاوم او يقهر ، من الذي يستطيع ان يفعل ذلك ؟!

وروج المسلمون الكثير من القصص عن هذه الافعال وسواها من الاعمال الخالية من الانسانية ، مما اقترفه الصليبيون ، ولم ندرك وقتها وقع ذلك وأثره وان الرب قد جعل منا سببا من اسباب الرعب

وبعد ماعاد ريموند الى معرة النعمان استبدبه انذاك الغضب وسخط اشد السخط على اتباعه ، ومع هذا أثنى على الرب وشكره ، ثم أمر بتقويض أسس الأسوار ، وذلك بعدما اقتنع ان تهديدات أسقف البارة والبارونات الاخرين وقوتهم لن تثني المعدمين عن عزيمتهم ، وفي الوقت نفسه كان نقص المؤن وشح الاطعمة يتفاقم يوما تلو الاخر ، وصدرت الينا الآوامر بتوزيع الصدقات ، والصلاة من اجل استئناف الزحف ، ذلك ان اليوم المحدد كان يقترب ، وفي هذه الأثناء ازداد قلق كونت طولوز بسبب تغيب البارونات الكبار ، ولتفاقم اثر المجاعة في اضعاف الرجال ، ولقد أصدر أوامره الى المسيحيين بالبحث عن الاطعمة في الاراضي الاسلامية ، ووعد ريموند انه سيسير مع فرسانه في الطليعة ، غير

ان بعض اتباعه الغاضبين تشكوا اليه قائلين : ان كل مالدينا لايتجاوز ثلاثمائة فارس وحفنة من الرجالة ، فكيف يمكننا تقسيم القوات بحيث يمضي بعضنا الى داخل الاراضي الاسلامية ، ويبقى بعض اخر بين انقاض معرة النعمان بلا قدرة على الدفاع ، ثم اسهبوا في الحديث حول اضطراب الكونت ريموند وعدم استقراره التام .

ومع ذلك سار الكونت في النهاية نيابة عن الفقراء نحو اراضي المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون واسر بعض الاسرى ، كما قام بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ولدى عودته مبتهجا بظفره بعدما قتل عددا كبيرا من المسلمين ، تمكن المسلمون من قتل ستة او سبعة من رجالنا ، ومن المثير للدهشة البالغة ان تلك الجثث كان مرسوما عليها صلبان على الكتف الأيمن ، ولقد شعر المشاهدون ومعهم الكونت ريموند براحة عظمى لدى رؤيتهم لهذا المنظر ، وقدموا الشكر والصلوات الى الرب القادر على كل شيء ، لتذكره الفقراء من عبيده ، ولتوليه اقناع المتشككين الذين مكثوا في القرب من معرة النعمان مع الامتعة عندما حملوا معهم واحدا من الجرحى الذي كان قد اصيب اصابات مميتة ، لكنه ظل يتنفس ، ولقد رأينا معجزة باهرة في هذا الجريح البائس ، فقد كان جسمه قد مزق ، حتى انه لم تعد توجد فيه بقعة تخفي روحه ، ومع هذا عاش هذا الرجل سبعة ايام او ثمانية لم يذق خلالها الطعام ، وجاء هذا شاهدا في تلك الاونة على ان يسوع الماضي الحكم والارادة بكل تأكيد ، كان هو الرب الذي خلق الصليب الذي حمله على كتفه .

الفصل الحادي عشر

استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة

شجع حسن الطالع مع شارات الصليب الطيبة الباحثين عن الطعام ، فخلفوا غنائمهم عند كفر طاب على مسافة اربعة فراسخ من معرة النعمان ، وعاد ريموند وبرفقته الاصدقاء والاتباع الى معرة النعمان ، وفي اليوم المعين رحل الكونت وكهنته واسقف البارة ، وسار الجميع حفاة الأقدام يطلبون رحمة الرب وحماية الصديقين ، بينما راح اللهب الذي أشعله المسيحيون يعلو انقاض المعرة ، وسار تانكرد في المؤخرة مع أربعين من الفرسان واعداد كبيرة من الرجالة ، ولدى سماع حكام المناطق المجاورة انباء استئناف الحملة ، أرسل سادة العرب الى ريموند يلتمسون المهادنة ويعرضون العروض الكثيرة والوعود الجمة بالاستسلام في المستقبل ، يضاف الى هذا السلع االتي يمكن ابتياعها أو الحصول عليها بالمجان .

وتابعنا الزحف بأمان معتمدين على وعودهم ، وكانوا قد سلمونارهائنهم كضمان ، ومع هذا نعتقد ان الأدلاء الذين بعث بهم الينا حاكم شيزر اساءوا ارشادنا في اليوم الأول ، وكنا وقتها بحاجة الى كل شيء باستثناء الماء الذي توفر عند موقع المعسكر ، غير ان هؤلاء الأدلاء انفسهم قادونا في اليوم التالي الى واد حشرت فيه ماشية الحاكم والمناطق المجاورة جميعا ، ولعل ذلك كان بسبب ماأشعرناهم به من خوف ، ومع ذلك لوامر الأقليم بأكمله بإيقاف زحفنا لما استطاع ذلك لاننا امتلكنا ايضا مانحتاج اليه من معلومات ، ففي ذلك اليوم قام ريموند أوف ايل ورفيق له بأسر مبعوث الحاكم ومعه رسائل تحرض جميع السكان على

الجفلة ، ولدى سماع الحاكم خبر اعتقال مبعوثه ، قال : يارجالي تقدموا الى الفرنجة ، عوضا عن الفرار بسرعة من امامهم حسبما امرت من قبل ، لأنه طالما أن الرب قد اختار هذا الجنس فلن اقف معترضا في طريق رغباته ، ثم حمد هذا الحاكم الرب الذي يرزق الذين يخشونه ويلبي حاجاتهم .

وكان مشهد هذا القطيع الكبير - غير المتوقع - من الماشية ، ثم الاستيلاء عليه سببا دفع فرساننا وميسوري الحال منا الى الذهاب الى شيزر وحمص بأموالهم لشراء الخيول العربية قائلين : مادام الرب قد تكفل أمر اطعامنا فلنتكفل نحن بدورنا شأن الفقراء والجيش ، وهكذا حصلنا على نحو الف من افضل الجياد للحرب ، ويوما تلو الآخر استرد الفقراء عافيتهم ، وغدا الفرسان اشد قوة ، وبدا الحال وكأن الجيش يزداد عددا ، وبتنا كلما تقدمنا بزحفنا كلما زادت نعم الرب علينا ، وعلى الرغم من توفر المؤن ، فقد جرب بعض الأمراء اقناع ريموند بالتوقف عن الزحف بعض الوقت بهدف الاستيلاء على جبلة المدينة الساحلية ، بيد أن تانكرد يعاونه بعض الرجال الشجعان الطيبين حالوا دون ذلك معترضين بقولهم : لقد زارنا الرب وزار الفقراء ، فلماذا يتوجب علينا التحول عن متابعة الرحلة ؟ ألم تكفنا المصاعب السالفة التي اعترضتنا اثناء معركة انطاكية مع البرد والجوع والذي عانيناه من البؤس والشقاء الانساني ، هل علينا وحدنا محاربة العالم كله ، ولماذا ؟ فكروا قليلا وتمعنوا فمن بين مائة الف فارس لم يكد يبقى سوى اقل من الف ، ومن بين مائتي الف من الرجالة المسلحين ، لم يتبق للقتال غير اقل من خمسة آلاف ، هل سنظل نتلكأ حتى تتم تصفيتنا جميعا ؟ هل سيقدم المسيحيون من الغرب اذا سمعوا عن احتلال انطاكية وجبلة وسواهما من المدن الاسلامية ؟ كلا بالطبع علينا الزحف نحو القدس المدينة التي جئنا نسعى نحوها ، ومن المؤكد ان الرب سيمنحنا اياها ، ووقتها فقط سيجلوا سكان المدن الأخرى ، الواقعة على طريقنا مثل جبلة

و طرابلس و صور و عكا ، عنها خوفا من موجة الحجاج الجديدة المقبلة من العالم المسيحي.

وفي الوقت نفسه استمر العرب والأتراك في مهاجمة الساقة يقتلون الضعفاء من الفقراء ويستولون على أمتعتهم ، وبعد واقعتين من هذا القبيل نصب الكونت كمينا وقف فيه اثناء مرور الحجاج ، وهنا عندما اندفع المسلمون الذين لم يرتدعوا ـ وممن كان يحدوه الأمل بالأسلاب ـ خلف جيشنا حسب عادتهم من قبل ، مروا الآن أمام كمين الكونت ، فانقض ريموند وفرسانه عليهم ، فأوقعوا الفوضى بين صفوفهم وقتلوهم ثم عادوا سعداء نحو بقية الجيش ومعهم خيولهم ، وسار ريموند وعدد كبير من الفرسان بعد هذه الواقعة خلف الساقة لحراستها ، وبهذه الواسطة توقف العدو عن محاولاته في اصطياد الفقراء ، ومع هذا الاجراء الاحتياطي سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندي ، وتانكرد واسقف البارة أمام المقدمة حتى لايستطيع العدو النيل منا من الأمام أو الخلف .

ومما هو جدير بالذكر ان اسقف البارة كان قد خلف في البارة حامية قوامها سبعة فرسان وثلاثين من الرجالة تحت امرة وليم بن بطرس أوف كونيليا كوم ، غير انه بناء على نصيحة الكونت انضم الى الجيش لأن الكونت استهدف زيادة عدد الفرسان الذين كانوا سيزحفون من المعرة الى القدس ، وفي وقت قصير تمكن وليم ـ وهو رجل مؤمن عظيم الاخلاص ـ بمعونة الرب ان ينجح رغبات الأسقف فوق تصوراته ، فبدلا من ثلاثين من الرجالة اصبح لديه سبعون مع ستين او اكثر من الفرسان .

واثناء اجتماع لنا وافقنا على تجنب مدينة دمشق والزحف نحو ساحل البحر ، لأنه كان بإمكاننا الاتجار مع قبرص والجزر الأخرى اذا ماانضمت الينا سفننا من انطاكية ، وبعد ان ركبنا هذا الطريق وجدنا ان سكان البلاد قد جفلوا من مدنهم وهجرواتحصينا تهم

ومزارعهم ذات المخـازن المليئة ، ثـم وصـلنا الى واد خصـب جدا (وادي النضارة) بعـدما قمنا بـالدوران حـول جبـال عالية ، وواجهنا هنا بعض الفلاحين متفاخرين بأعدادهم وبقلعتهم المنيعة (حصن الأكراد) ولهذا لم يظهروا نحونا ادنى نوايا طيبة و لم يعطونا اية اشارة الى أنهم سـيتخلون عن قلعتهـم - بـل على العكس من ذلك انقضوا علينا من اعلى جبلهم وقتلوا بعض الأتبـاع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلأ هنا وهناك وسط الحقول ، وحملوا الأسـلاب الى قلعتهـم ، وزحـف رجـالنا الذين أغضبهم ماجرى نحو سفح الجبل الذي قامت عليه القلعـة ، غير ان السكان لم ينزلوا لملاقاتنا ، وعقدنا مجلسا للحرب ، تشكل بعـده فرساننا ورجالتنا في صفوف تسلقت الجبل من ثلاثة جوانب وهزموا الفلاحين ، و كان تعدادهم ثلاثين الفا مـن المسـلمين الذين كانوا يشغلون القلعة ، ومكن الموقع هؤلاء من التراجع وأعطاهم الفرصة للاعتصام بـالقلعة او في اعلى المنحـدرات وهـكذا اعاقـونا لبعض الوقت .

انما عندما صرخنا بصيحة حربنا :« ساعدنا يارب ، سـاعدنا يارب » مات حوالي المائة من المسـلمين لانه دب في قلوبهـم الرعب وخافوا خوفا شديدا ، أو لأنهم خنقوا في الازدحـام لدى الاندفـاع للدخول الى القلعة ، وطبعا جرى خـارج الأسـوار ـ كمـا هـي العادة ـ نهـب كبير للمواشي والخيول والأغنام ، وحدث هـذا حيث كنا نحارب ، وهنا حدث انه بينما كان الكونت وفرسانه يجـدون في القتال ، طمع المعدمون منا بـالغنائم ، وبـدأ الفقـراء الواحـد تلو الآخر ، ثم الرجالة الفقراء وأخيرا الفرسان الفقراء ، بالتخلي عن ميدان القتال ومن ثم العودة الى خيامهم التى كانت على بعد نحو من عشرة أميال .

وفي الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجـالته بـالتحصن في مواقعهم ، غير ان المسلمين وقد رأوا صفوف الفرنجة بـدات تخلوا من المقاتلين ، شرعوا بالنزول من الجبـل مـع الذين كانوا داخـل

القلعة ، واخذوا في رص صفوفهم وتقويتها ، ولم يتنبه ريموند الى ماحصل ، وكاد ان يفقد الاتصال بفرسانه عبر ممر مقفر شديد الانحدار ، فهناك سارت الخيول في رتل افرادي ، وفي مواجهة هذا الخطر تظاهر ريموند بالتقدم مع رجاله وكأنه على نية الهجوم على المنحدرين من أعلى الجبل مما جعل المسلمين يترددون ، وفي هذه الساعة انعطف الفرنجة وتحولوا نحو منطقة خيل اليهم انها آمنة في الوادي ، وعندها لاحظت كتيبتا الأعداء هذه المناورة ، وكانت احداها على الجبل والأخرى في القلعة ، ولدى مشاهدتهم قواتنا تهبط منحدرة من الجبل ضموا قواتهم واندفعوا يهاجمون رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم سقط بعض رجالنا من على خيولهم ، بينما اندفع آخرون عبر اماكن شديدة الانحدار فسقطوا وهكذا افلتوا من الموت بأعجوبة ، غير ان بعضهم مات ميتة بطولية .

ومن المؤكد ان ريموند لم يتعرض قط لمثل هذا الخطر الذي كاد ان يفقده حياته ، ولهذا حنق في نفسه حنقا شديدا ، وغضب على قواته اشد الغضب حتى انه لدى عودته الى الجيش وجه التهمة الى فرسانه علنا داخل المجلس بالتخلي عن القتال بدون اذن منه وبتعريض حياته للخطر ، وهنا اقسم الجميع وتعاهدوا على متابعة الحصار الى ان يجعلوا القلعة ببركة الرب دكا دكا . لكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث لم يحجهم الى هذا ، فقد القى الرعب في قلوب المدافعين الى حد انهم في تعجلهم بالفرار ، تخلوا عن موتاهم فلم يدفنوهم ، وفي الصباح لم نجد في انتظارنا سوى غنائم الحرب ، وقلعة يسكنها الأشباح :

وتأثر رسل امير حمص وحاكم طرابلس ، الذين كانوا في معسكرنا اثناء هذه الوقائع ، بمنظر شجاعتنا وبقوتنا ، فتوسلوا الى ريموند ان يأذن لهم بالانصراف مع وعد بالعودة سريعا ، وبالفعل رحلوا مع مبعوثنا وبعد امد قصير عادوا محملين بالهدايا الفخمة ومعهم خيول كثيرة ، وكان سبب هذا كله الخوف

الذي استبد بالمنطقة بأسرها بعد أخذنا للقلعة التي لم يكن بـامكان احد نيلها من قبل ، زد على هذا ، بعث سكان المنطقة بـرسالة الى ريموند ، والتمسوا منه ارسال راياته واختامة حتى يتسلم مـدنهم وقلاعهم ، واذكر ان العادة جرت في جيشنا وقضت باحترام راية اي فرنجي وعدم مهاجمة الموقع المرفـوعة عليه ، وهـكذا رفـع حـاكم طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول وضح ان شهرة كونت طولوز لاتفوقها شهرة ومكانـة لاتعلوها مكانة قائد فرنجي آخر ، وتـوجه بعض فـرساننا كمبعوثين الى طرابلس ، وهناك بهرهم الثراء الملكي الذي شـهدوه وراعتهـم الممتلكات الغنية و المـدينة المزدحمـة بـالسكان ، ولذلك اقنعوا ريموند بأن حاكم طرابلس سوف يمنحه خلال اربعـة ايام او خمسة كميات من الذهب والفضة كبيرة تقر عينه بهـا اذا مـاحاصر عرقة ، وعرقة موقع حصـين جـدا ، لايمـكن لقـوة بشرية التغلب عليه ، ومع هذا حاصرنا عرقة بناء على رغبـاتهم ، وهـكذا جعلنا رجالا شجعانا منا يعانون متـاعب لم يعـرفها احـد ، ويؤسـفني القول : اننا تحملنا خسائر هائلة كان منها العـديد مـن الفـرسان المميزين ، وقد مات واحد من هؤلاء الفـرسان واسـمه بـونز أوف بالازون نتيجة اصـابته بحجـرة اطلقـت عليه مـن عرادة ، وكانت توسلاته هي التي جعلتني أواصل هذا العمـل الذي تجشـمت عناء كتابته من أجل جميع اصحاب العقيدة المسـتقيمة ، لاسـيما الذين يعيشون وراء جبال الألب ، ومـن أجلك أنت ، ياصـاحب النيافـة أسقف فيفييه .

وسأحرص عظيم الحرص بالهام من الرب الصانع الحقيقي لهذه الأحداث ، على اكمال روايتي بالحب نفسـه الذي بـدأت بـه داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع بهذه الأشياء بحقيقتهـا ، وليثقلني الرب بأهوال الجحيم ، وليمحـوا اسـمي مـن سـجل الأحياء اذا اضفت ـ بدافع الحماس لأي شـخص أو الكراهية ـ اي شيء الى هذا الكتاب غير ماصدقته أو رايته ، وعلى الرغم من جهلي لأشياء

كثيرة انني اعرف ان من واجبي ـ منذ ان تقدمت الى الكهنوت على صليب الرب ـ ان اطيع الرب ، وان احكي الحق ، والا الفق الاكاذيب ، وبودي الاستمرار بالود نفسه والمحبة ذاتها في سرد اخبار تاريخي ، حسبما حث بولس على ذلك عندما قال : « ان المحبة لاتسقط ابدا وليساعدني الرب » (الرسالة الأولى الى اهل كورنثوس : ٨/١٣)

وفي اثناء الحصار المطول كانت سفننا القادمة من انطاكية واللاذقية مع السفن الاغريقية وسفن البنادقة ترسو و بها الحبوب والنبيذ والشعير ولحم الخنزير وسلع اخرى يمكن بيعها ، ومع هذا سرعان ماابحر البحارة عائدون الى موانيء اللاذقية وطرطوس لأن عرقة وقعت على مسافة ميل من البحر ، ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه ، وكان المسلمون قد جفلوا من طرطوس قبل حصار عرقة وطرطوس مدينة جيدة التحصين لها أسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها كميات كبيرة من المؤن ، وقد هجرها سكانها بسبب الرعب الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة ، وهو رعب جعلهم يوقنون اننا كنا نمتلك قوى كبيرة ، وننوي تدمير بلادهم بلا شفقة .

ومع ذلك امطرنا الرب بمختلف انواع المصائب وذلك انه لم يشأ مساعدتنا في حصار قمنا به في سبيل مصالح ظالمة وليس في سبيله ومن المثير للدهشة ان المسيحيين بعدما كانوا متشوقين للمعارك ويستعدون لها باتوا الآن لايميلون الى القتال ولايتمتعون بالحيوية ، ومع هذا سار جند المسيح الملهمين اما جرحى او مرهقين بعد ماحاولوا عمل كل شيء ، لكن وجدوا ان لاطائل من وراء جهودهم .

و في اثناء حصار عرقة مات اسلم أوف ريبمونت ميتة مجيدة فقد افاق صباح ذات يوم فاستدعى كاهنة اليه واعترف بزلاته واثامه وطلب الرحمة من الرب ، وتحدث انه على وشك الموت ، ووقف الذين

سمعوه مندهشين لان ماقاله صدمهم ولان انسلم بداسليما معـافى ، وهنا هتف بهم قائلا : لاتندهشـوا واصـغوا الي : رايت في الليلة المنصرمة اللورد انجلراند من سان بول ، وكان قد مات في المعـرة ، وسألته وانا في كامل وعيي : ماالذي يجـري هنا ، انت مـت واراك الان هنا حيا ؟ فرد علي لورد انجلراند : ان الذين يقتلون في خـدمة المسيح لايموتون ابدا ، فسالته مجددا عن مصـدر بهـائه المنقـطع النظير فاجابني قائلا : ليس في هـذا مـا يدهش لاننى اعيش في دار رائعة ، وفي الحال أراني بيتا في عليين رائعا ومريحا لم أر ما يضاهيه ، و بينما وقفت مذهولا أمام المشـهد قـال لورد انجلراند هناك بيتا اجمل منه كثيرا معد لك غدا ، وبعد ذلك صعد .

وبعدما انتشرت هذه الحكاية انتشارا واسعا ، تقـدم انسـلم في اليوم نفسه الى قتال بعض المسلمين الذين تسللوا الى خارج قلعتهم على امل الاستيلاء على شيء او اصابة شخص ما ، وفي القتال الذي اعقب ذلك قاتل انسلم بـكل شـجاعة ، غير انه اصـيب في راسـه بصخرة من حجارة المنجنيق فتـرك هـذا العـالم ليعيش في بيتـه السماوي الذي اعده له الرب .

وقدم بعد ذلك الى عرقه رسول من عند ملك بابليون (مصر) مع رسلنا الذين سرحهم بعدما حبسهم عنده لمدة سنة ، وكان هـذا الملك مترددا بين اختيارنا او اختيار الاتراك ، وقد عرضـنا على رسـوله الشروط التالية : ان هو ساعدنا في القدس او اعاد هذه المدينة الينا مع ما يتبعها فاننا سنعيد اليه مدنه السالفة التي كان الاتـراك قـد انتزعوها منه وذلك في حالة استيلائنا عليهـا ، وبـالاضافة الى ذلك سنقتسم معه جميع المدن التركية الاخـرى التـي لاتقـع في نطـاق ممتلكاته ولكن ياتي الاستيلاء عليها بمساعدة منه .

وترددت اقاويل بان الاتراك قد وعدوه انه اذا ما تحالف ـ ملك مصر ـ معهم ضدنا فانهم سيقدسون عليا قريب محمد(صـلى الله

عليه وسلم) الذي كان يقدسه ، وسيتعاملون بنقوده ويدفعون له الجزية وسيوافقون ايضا على تنازلات اخرى لم نتعرف اليها .

ومن رسائل عثرنا عليها في خيام ملك مصر بعد معركة عسقلان كان قد بعث بها اليه الكسيوس لابد انه قد عرف ان جيشنا كان صغيرا وان الامبراطور كان يتآمر على تدميرنا ، ولهذا السبب وغيره احتبس رسلنا عنده في مصر لمدة سنة ، اما الان فعندما وصلته تقارير عن دخولنا الى اراضيه وما رافق ذلك من تدمير لقراه وحقوله واشياء اخرى ابلغنا انه يمكن لمائتين او ثلاثمائة منا ان يمضوا كل مرة الى القدس انما بدون سلاح ، ثم يعودوا بعد عبادة الرب ، لكن ثقة منا برحمة الرب رفضنا عرضه وابلغنا انه ما لم يعد الينا القدس بدون تحفظات فسنزحف على مصر .

واذكركم ان الامير الذي كان يحتل القدس انذاك تمكن من ذلك بعد ما وصلته اخبار الكارثة التركية في انطاكية ، فقد حاصر القدس ، وهو يعرف ان الاتراك الذين كانوا وقتها عرضة للهزائم والابادة لن يقاوموه ، وتسلم القدس بعدما اعطى الى المدافعين عنها هدايا ثمينة ، وقدم قرابين من البخور والشموع عند القبر فوق جبل الجلجلة .

ولنعد الان الى اخبار حصار عرقة ، وفي وسط انشغال جيشنا هناك ، اتتنا كما قلنا اخبار تفيد ان بابا الاتراك (الخليفة العباسي) تتبعه قبائل كثيرة ، لانه كان من سلالة محمد (صلى الله عليه وسلم)كان في طريقه الى قتالنا ، فوضع الجيش في حالة تاهب للقتال ، وتم ارسال اسقف البارة الى غود فري وكونت فلاندرز ، وكانا في جبلة ، وهي حصن يطل على البحر قائم في منتصف الطريق بين عرقة وانطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريبا من كل منهما ، بيد اننا عرفنا انذاك ان الامر مجرد اقاويل زائفة اشاعها المسلمون وروجوا لها ليرهبونا فينالوا بعض الراحة اثناء الحصار ، وبعد تجمع الجيوش ، راح رجال حاشية الكونت يتباهون بخيولهم

العربية وبثرواتهم التي منحهم الرب اياها في اراضي المسلمين ، لانهم واجهوا الموت في سبيله ، ومع هذا كان هناك اعداد كبيرة ممن زعموا انهم مازالوا في فقر مدقع .

وبسبب وجود الاعداد الكبيرة من الفقراء والضعفاء توفر تحريض للفقراء على تقديم عشر غنيمة الحرب ، وكان التقسيم الذي سمح به حسبما يلي : ربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، وربع للاسقف ، والنصف المتبقي الى بطرس الناسك الذي كان الحارس المرخص له بحماية الفقراء ورجال الدين وعامة الناس واعطى بطرس بدوره بعضا من هذا المبلغ الى رجال الدين والعامة ، ونتيجة لهذا ضاعف الرب عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الاخرى ، حتى اخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل ماخذ ، غير ان هذا الرخاء المفاجيء كان سببا في النزاع بين القادة وفي رعونتهم وعجرفتهم ايضا ، الى درجة ان اشد المسيحيين اخلاصا للرب ، تاقوا الى الفقر ، والى ان تهددنا مخاطر القتال الرهيب .

وعرض علينا حاكم طرابلس خمسة عشر الف قطعة من الذهب من نقود المسلمين ، فضلا عن الخيول والبغال والثياب الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا في السنوات المقبلة ، وحتى نقدر قيمة هذا العرض ينبغي ان نعرف ان قطعة ذهبية واحدة كانت تساوي ما بين ثمانية الى تسعة صولديات ، وكانت العملات المتداولة بيننا تشمل البيكتا فاني (بواتو) والكارتنيس (شارتر) والمانسيس (مانز) واللوكنيسيس (اوكويس) والفالانزاني (فالنس) والميلجو رينسيس (ملجويل) والبوجيزي (بوي) وكان الاسمان الاخيران يستخدمان بدلا من الاسماء الاخرى ، يضاف الى ذلك ارسل حاكم جبلة الذي خشي من حصار اخر - الى قادتنا جزية قدرها خمسة الاف قطعة ذهبية مع خيول وبغال وكميات كبيرة من النبيذ .

وتوفرت لدينا المؤن لان الهدايا كانت ترسل الينا من القلاع والمدن الاخرى غير الجبلية ، زد على هذا قام بعض المسلمين بدافع الخوف او الحماس لطريقتنا في الحياة بالتنصر (كذا ؟) ونتيجة لهذا الثراء الجديد ، بعث كل واحد من امرائنا بالرسل والرسائل الى المدن الاسلامية يبلغها أنه هو السيد بين الفرنجة ، و على هذه الصورة كان سوء سلوك امرائنا في ذلك الوقت وكان تاذكرد من اكبر مثيري الشغب والفتنة ، ولعلكم تذكرون ان تاذكرد كان قد تلقى خمسة آلاف صولدي وحصانين عربيين اصيلين وفاخرين ، من ريموند ، مقابل خدماته اثناء الرحلة الى القدس غير انه كان الآن يريد الانضمام الى قوات غودفري ، وهكذا دب النزاع بينه وبين ريموند ، واخيرا تخلى تاذكرد بكل خسة عن الكونت.

الفصل الثاني عشر

رؤى ومحنة الحربةالمقدسة

أعلنت في هذه الآونة رؤى كثيرة بعث الرب بها الينا ، وسأحكي انا مصنف هذا الكتاب خبر الرؤيا التالية على عهدة الشخص الذي رآها حيث قال : «في اليوم الخامس من نيسان لعام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا ، وبينما كنت انا بطرس بارثلميو أستريح في بيعة الكونت اثناء حصار عرقة ، تفكرت في الكاهن الذي تجلى له الرب بالصليب في ايام حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجل لي على الصليب ، وفيما انا في هذا الحال رأيت فجأة الرب والرسولين : بطرس واندروز مع شخص غريب ضخم الجثة ، قاتم البشرة واسع العينين أصلع تقريبا ، يدخلون البيعة ، وما لبث ان سألني الرب : ماذا تفعل ؟فأجبت : انا واقف هنا ، فاستأنف الرب كلامه قائلا : لقد قهرتك الآثام الى حد كبير ، مثل الآخرين ولكن ما هي افكارك الآن ؟فأجبته : يارب ، يا ايها الاب ، كنت أتفكر في الكاهن وبظهورك على الصليب له ، فقال الرب : انني أعرف ذلك ، وتابع يقول : امن انني انا الرب الذي مضيت في سبيله تحمل الصليب ، وانني تحملت الآلام على الصليب في القدس ، من أجل خطاياكم ، واذا امنت بذلك فلسوف ترى .

ثم رأيت صليبا مصنوعا من قطعتين من الخشب الأسود المستدير المصقول ، مركبا بشكل سيء ، باستثناء الوصلات المسننة التي تدعمه عند المنتصف ، وامرني الرب قائلا : حدق بالصليب الذي تفتش عنه ، وعلى الصليب كان هناك الرب ممددا ومصلوبا ، تماما مثلما هو في الآلام ، وكان بطرس يسنده من يمينه واندروز يمسك بكتفيه من على شماله ، والغريب يسنده بيديه من خلفه .

وتابع الرب في اصدار توجيهاته قائلا : ابلغ شعبي بهذه الرؤيا هل ترى جراحي الخمسة ؟ مثل هذه الجراح،ليقف الحجاج في خمسة صفوف ، وعلى الذين يقفون في الصف الأول الا يخشوا الرماح ولا السيوف ولا من أي نوع من المحن ، ان الذين مضوا الى القدس دون خشية من السيوف والرماح والفؤوس والعصي يشبهونني ، انهم بحملهم للصليب يموتون من أجلي كما مت من أجلهم ، ونحن معا نسكن روحيا الواحد منا الآخر ، وعند موتهم سيجلسون على يمين الرب في المكان الذي جلست فيه بعد قيامي وصعودي ، أما الذين يقفون في الصف الثاني فهم مساعدون للذين في الصف الأول ، وهم قوة المؤخرة وهم ضمان ووقاية في حالة الفرار

ويمكنني القول ان هذا الصف يشبه الرسل الذين تبعوني وشاركوني الطعام أما الذين في الصف فيذكرونني - انيعملون بالامداد فيمدون الذين يقاتلون بمختلف الأشياء مثل الحجارة والرماح - بالذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة الظلم عندما كنت معلقا على الصليب أعاني من الآلام ، أما الذين في الصف الرابع ، الذين أغلقوا على أنفسهم بيوتهم وانصرفوا للاهتمام بشؤونهم فقط لدى نشوب الحرب ، لاعتقادهم أن النصر لا يكمن في قوتي انا بل في الحكمة البشرية ، هؤلاء يشبهون الذين صلبوني قائلين : انه يستحق الموت ، خذوه الى الصليب لأنه يزعم انه ملك وانه ابن الله ، وعندما سمع الذين يقفون بالصف الخامس جلبة المعركة نظروا اليها من بعد ، وفتشوا عن أسبابها ، فأظهروا الجبن بدلا من الشجاعة ، ولم يقوموا بأدنى مخاطرة في سبيلي ، أو في سبيل اخوانهم ، وفي الحقيقة انهم تحت قناع الحذر يدعون الذين يرغبون في خوض المعركة أو على الأقل في تقديم السلاح ، أن يجلسوا فقط على الخيول ، انهم والحق أقول أشبه بالخونة : يهوذا والقاضي بونطيوس بيلاط .

وكان الرب معلقا على الصليب عاريا الا من خرقة مدلاة من خاصرته الى ركبتيه وهي ذات ظل اسود واحمر تحفه شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، واختفى بعد ذلك الصليب وبقي الرب بملابسه

السالفة ، فقلت له مولاي الرب ، انني اذا ما ابلغتهم بذلك فلن يصدقوني ، ورد الرب قائلا : هل تريد معرفة المتشككين ، فأردفت قائلا نعم انني بالفعل أريد ذلك ، وهنا أمرني المسيح قائلا : اطلب من الكونت أن يجمع القادة والعامة معا ، ودعهم يصطفون كما لو كانوا في قتال أو حصار ، واطلب في الوقت المناسب من افضل المنادين أن يطلق صيحة الحرب : «عاونا يارب» ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يسعوا لاكمال التعبئة للقتال ، وعندها سترى كما قلت لك الصفوف وستتعرف على المؤمنين والمتشككين .

ثم سألته : ما الذي علينا أن نفعله بالمتشككين ؟ فأجاب الرب : لا تظهروا لهم أدنى رحمة ، اقتلوهم انهم من الذين خانوني ، انهم اخوة يهوذا الأسخر يوطي ، ووزعوا ممتلكاتهم الدنيوية على الصف الأول وفقا لاحتياجاتهم ، وستجدون بهذا الصنيع الطريق القديم الذي كنتم حتى الآن تدورون حوله ، ومثلما تحققت نبوءات التجليات الأولى ستتحقق هذه،وبهذه المناسبة هل تعرف الجنس الذي أنظر اليه نظرة خاصة ؟ واجبته قائلا : الجنس اليهودي،فقال الرب : انني أحمل لهم عظيم الكراهية بصفتهم من الكفار ، وأصنفهم مع أحط الأجناس ، لهذا تأكدوا انكم لستم كفارا ، والا ستكونوا مع اليهود ولسوف اختار شعبا آخر وأحقق لهم وعودي التي وعدتكم بها .

ثم أمرني الرب أن اتلو على مسامع الحجاج قوله : «لماذا تخشون من اقرار العدالة ، دعوني أسألكم ما الذي يفوق العدالة ؟ لذلك أريد منكم أن تقوموا بما يلي : عينوا قضاة بين الأسر والأقارب ، واذا اقترف انسان جرما في حق آخر ، فليسأله القاضي : أيها الأخ هل تحب أن تعامل مثل هذه المعاملة ؟ واذا ركب رأسه واستمر في عدوانه فليحكم القاضي عليه وفقا لما يقضيه القانون ، وبناء على ذلك ليشعر القاضي بحريته في أن يستولي على جميع ممتلكات المدعى عليه، فيعطي نصفها للمدعي ، ونصفها الآخر للسلطات ، واذا ما قال القاضي كلاما يحتمل وجهين وذلك لأي سبب من

..سباب ، امض اليه واخبره انه اذا لم يصلح ذلك الأمر ، فلن
.. منه حتى يوم القيامة ، الا اذا حللته أنت ، هل تعرف كم هو
.. مان عبء ثقيل ؟ لقد امرت آدم الا يلمس شجرة المعرفة — اي الخير والشر — فخالف أمري ، وهكذا مكث هو وذريته في قيود التعاسة ، حتى قدمت على شكل انسان فان ، ففديتهم بصلبي
واقول لكم ان بعضكم ينبغي أن يأخذ من العشور لانهم أعطوا حسبما امروا ، وسأكافئهم وأعطيهم وأجعلهم من المتفوقين .

وبعد كلام الرب طلبت منه أن يتعطف بقلبه فيعيد الي معرفة الصلوات التي اخذت مني حديثا في انطاكية ، وسألني الرب .. . الا تكفي معرفتك حتى تحكيها ؟ ومع هذا أرى أنك تريد معرفة المزيد ، وأصبحت فجأة أثق بحكمتي ولم اطلب المزيد ، فأجبت يكفيني ما أعرف ، ثم استأنف الرب كلامه قائلا : ما الذي اخبرتك به ؟ اجبني ، ووجدتني الآن لا أحير جوابا
وعندما الح علي حتى أردد كلماته اعترفت يا رب أنا لا أعرف شيئا ، ورد علي الرب امض واحك ما تعرفه وسيكون ذلك كافيا .

وعندما القيت على مسامع الاخوان هذه الأشياء ، قال بعضهم انهم لن يصدقوا ابدا ان الرب أجرى حوارا مع انسان كهذا ، متغاضيا عن الأمراء والأساقفة ، و متجليا بنفسه لفلاح امي جلف ، لا بل أكثر من هذا لقد تمادوا بعيدا حتى أخذوا يرمونه بالشكوك حول الحربة المقدسة ، و بناء عليه جمعنا الذين ظهرت الحربة من قبل أمامهم ، ثم استدعينا أرنولف كاهن كونت نورماندي الخاص و زعيم المتشككين بصحة الرؤيا ، مع أنه كان يتمتع باحترام كبير بسبب علمه ، ثم سألناه عن شكوكه

فأجاب انه يتشكك لأن الأسقف ادهمر كان نفسه قد تشكك حول حقيقة الحربة وأصالتها ، وهنا انبرى له الكاهن بطرس ديزيدريوس بقوله : رأيت أدهمر بعد موته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي بعد كلام : انني أقيم في الضيافة العلوية للقديس نيقولاس ، وكنت قد

اخذت الى الجحيم ، فأحرق شعر النصف الايمن من راسي مع نصف لحيتي ، وذلك لانني قد ترددت بالايمان بـالحربة ، في حين كان علي ان اقبلها انا بالذات مـن دون الناس ، والآن على الرغم مـن انني لست عرضة للعقاب ، انني لا استطيع ان ارى الرب بوضوح حتـى يحصل النمو الكامل لشعري ولحيتي من جديد .

وتقدم كاهن اسمه ايبرار وقال : كنت قد ذهبت الى طرابلس قبـل الاستيلاء على انطاكية بـوقت قصـير وهناك كنت اعيش حيا ارزق عندما سمعت بحصار كربوغا للحجاج ، وعندما سمعت بهذه الأخبار عرفت أن دخول انطاكية والخروج منها بات أمرا مسـتحيلا ، كمـا انني سمعت الكثير عن المصائب الحقيقية والوهمية التـي روجتهـا اقاويل المسلمين ، لهذا التجـأت الى كنيسـة خـوفا مـن الردى وارتميت امام تمثال مريم العذراء ، وطلبت لعدة أيام بـالصلوات والدموع رحمة الرب متوسلا بشفاعتها ، وكنت صائما وواظبت على التوسل بقولي : أيتها السيدة الفـاضلة ان هؤلاء حجـاج هجـروا اطفالهم وزوجاتهم وتخلوا عن ممتلكاتهم الدنيوية باسم المسيح ومن اجلك ، وها هم الآن وقد ارتحلوا مـن أمـاكن نائية في سـبيل ابنك فـاشفقي عليهـم يا مـولاتي ، وفـكري في رأي ابنك ورأيك وفي اراضيهم اذا اسلمتميهم الى الاتراك .

ورحت اتمتم بهذه الكلمات واتأوه المرة تلو الأخرى ، عندمـا جـاء مسيحي سوري وقال لي : توقف عن البكاء وابتهج ، ثم تابع يقول : منذ أمد قصير وقفت أمام ابواب كنيسة مريم المباركة أم المسـيح واذا أنا بكاهن بملابس بيضـاء يتجلى لي ، وعندمـا سـألته عن اسمه وعن وطنه أجاب انني مرقس ، المبشر الانجيلي ، جئت للتو من الاسكندرية ، وقد عرجت على هذا المكان بسبب كنيسـة مـريم المباركة .

ثم سـألته عن وجهتـه فـأجابني : ان المسـيح مقيم الآن في انطاكية ، وقد امر حواريه بالانضمام اليه حتى يقدما يد المعونة في

الحرب التي لا بد أن يخوضها الفرنجة ضد الأتراك ، ثم ما لبث أن

وعندما بقيت على حزني وشكي ودموعي طمأنني السوري نفسه بقوله : لا بد أن تفهم أنه مدون في انجيل بطرس المبارك أن الحشد المسيحي المقدر له الاستيلاء على القدس ، سيحاصر أولا في انطاكية ، ولن يخرج من الحصار الا بعد أن يجد الحربة المقدسة ، ثم أيد ايبرار كلامه قائلا: اذا كان أحد متشكك في هذا اشعلوا نارا للامتحان ، ولسوف أعبرها باسم الرب دليلا على ذلك .
وتقدم كاهن آخر هوستفن من فالنس ، وهو رجل محترم وطيب فأضاف الى هذه الشهادة قوله : لقد تحدث المسيح إلي في محنة من اشد المحن وبحضور أمه مريم العذراء المباركة ووعد أنه في اليوم الخامس من هذا الحديث سيكون رحيما وينهي الام المسيحيين ، اذا عدوا اليه بكل قلوبهم ، واعتقد أن الرب كان صادقا في كلمته ، لأن الحرب المقدسة اكتشفت في اليوم الخامس ، والآن اذا كنتم لا تصدقونني فانني أقول انني بعد هذه الرؤيا مباشرة عرضت على ادهمر مباشرة كبرهان على صحة ذلك أن أخوض محنة النار أمام الجمهور أو أن أقفز اذا شاء من أعلى برج من الأبراج ، وأن أعرض عليكم الآن الشيء نفسه .

وزاد اسقف أبت قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد أن الرب فقط يعرف ما اذا كنت قد رأيت ذلك في المنام أم لا ، لأني لا أعرف بكل تأكيد ، ومهما يكن من أمر لقد وقف أمامي رجل بثياب بيضاء وهو ممسك بيده بحربة الرب ، أقول هذه الحربة ، و سألني هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ وأجبته : بالتأكيد يا مولاي ، غير أنه لما بدا علي عدم الاقتناع طلب مني بخشونة اجابتين اخريين فكررت : انني أؤمن أن هذه هي حربة الرب ، يسوع المسيح واختفى بالحال .

ثم أضفت أنا - مؤلف هذا الكتاب - أمام الأخوة والأسقف الى

هذه الشهادة : لقد كنت في كنيسة القديس بطرس عندما اخرجت الحربة من تحت الأرض ، وهناك عدد كبير آخر من الشهود على ذلك في الجيش ، ثم تابعت أقول : هناك كاهن هو برتراند اوف لي بوي وكان عضو في اسرة ادهمر اثناء حياته ، وقد اصيب بمرض عضال في انطاكية ، وفي تلك الأثناء ظهر لبرتراند ادهمر ، وهرقل حامل رايته الذي اصيب بوجهه بسهم وقتل ، بعدما هاجم الأتراك بشجاعة في اشرس معركة دارت في انطاكية .

وهنا سأل ادهمر : ماذا تفعل يا برتراند ؟ فأجاب هرقل : ياسيدي انه مريض ، فأجاب الأسقف : انه مريض لأنه متشكك ، وهنا تمتم برتراند : انني يا سيدي لا أؤمن بحربة الرب مثلما أؤمن بآلام الرب ، فحذره ادهمر بقوله : ان هذا لا يكفي ، ينبغي أن تؤمن بأكثر من ذلك ، ومع أن الذي تلا ذلك خارج عن موضوعنا ، إنني سأدونه لأهميته ولنفعه للذين يستحقون .

عندما اضطر برتراند المريض المدنف إلى الجلوس أمام ادهمر ومولاه هرقل رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحزز الذي انهى هموم ادهمر الدنيوية ،و هنا سأله برتراند لقد ظننا يا سيدي أن جرحك التأم ، ولكن ما هذا ؟ فرد عليه هرقل هذا سؤال جيد ، إنني عندما جئت إلى الرب يسوع المسيح توسلت إليه أن يترك جرحي مفتوحا دون التئام ، ولم يكتف ادهمر وهرقل بابلاغ برتراند هذا فقط بل اضافا اشياء اخرى لاتتعلق بهذه الرواية

وسلم ارنولف وآمن بالحربة ، واعترف بعدما سمع بهذه الرؤيا وغيرها ، لا بل زاد على هذا بأن وعد اسقف البارة ،انه سيكفر عن تشككه تكفيرا علنيا ، غير انه عندما جاء في أحد الأيام إلى اجتماع أعلن انه يؤمن كل الايمان بالحربة ، ومع هذا قال كلاما فيه بعض التورية وذلك عندما قال : إنه سيكفر فقط بعدما يتشاور مع سيده الكونت .

واثار موقف ارنولف سخط بطرس بارثلميو ، وكان على حق لانه

كان رجل صدق وصراحة لهذا اندفع قائلا : إنني لا أتمنى فقط بل أتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض محنة النار وفي يدي الحربة المقدسة ، فإذا كانت هي حربة الرب حقا فإنني سأخرج منها دون أن أكوى بالنار ، لكنها إذا كانت حربة زائفة فستهلكني النار ، وأنا حين أعرض تولي فعل ذلك لأني أرى أنه ما من أحد يصدق الرؤى أو الشهود .

وارضى هذا الجمهور ، وحددنا موعد محنة النار في يوم آلام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارثلميو بالصوم ، وبعد أربعة أيام ومع بزوغ فجر الجمعة الحزينة (٨ نيسان ١٠٩٩) شرع باعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو من ستين ألفا من النبلاء والعوام مع رجال الكنيسة وهم حفاة الأقدام يرتدون الثياب الكهنوتية ، ورصت أغصان الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما اربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد اشعال النار ، وارتفاع لهيبها في الهواء أعلنت أنا ريمون دي جيل بحضور الحشد بأكمله : إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصيا ، وإذا كان القديس أندروز قد كشف له الحربة المقدسة في صلاة العتمة ، فليمش وسط النار دون أن يمسسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارثلميو والحربة ، وركعت الحشود قائلة : أمين ، وارتفعت الحرارة اللافحة ثلاثين ذراعا في الهواء ، ولم يستطع أحد الاقتراب منها .

ثم ركع بطرس بارثلميو على ركبتيه وهو يرتدي ثوبا كهنوتيا بسيطا بدون أكمام ، ركع أمام أسقف البارة ، وأشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصيا على الصليب ، وتلقى منه التعليمات المذكورة آنفا ، وتلقى أيضا تعليمات وأوامر من القديس بطرس

والقديس أندروز ، وأن الأوامر التي بلغها باسم القديس بطرس . أو القديس أندروز أو المسيح لم تكن من تأليفه ، وأضاف قائلا إنه إذا كان قد كذب فلن يخرج حيا من الكومة المشتعلة ، ودعا أن يغفر الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأسقف والمشاهدين لهذه المحنة ، وسلمه بعد ذلك الأسقف الحربة ، وركع بطرس ورسم شارة الصليب ، ومشى داخل الكومة المشتعلة بكل شجاعة ، ودون أن يخيفه شيء ، لقد سار في وسطها بتمهل ، وخرج اخيرا ببركة الرب من وسط اللهب .

ويزعم حتى يومنا هذا بعض الشهود أنهم راوا الآية التالية : طار طائر فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من وسط النيران ، ودار ونزل في النيران ، وشهد بذلك كل من ايبرار الذي ذكرناه من قبل ، والذي اقام في القدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهو فارس محترم ممتاز من أرليس ، وذكر وليم مالوس بوير ، وهو فارس محترم من بيزييه أن رجلا يرتدي الزي الكهنوتي مع ثوب القداس فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس ، وذكر وليم انه بدا يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه اخطأ ، وظنه بطرس بارثلميو ، واعتقد أن بطرس قد التهمته النيران .

وفي وسط الزحام الشديد كانت هناك اشياء كثيرة لم تشاهد جميعها ، إنما كانت هناك تجليات وأحداث كثيرة نحن نعرفها بكل تأكيد ، إنما لن نحكيها خوفا من اصابة القارىء بالملل ، فضلا عن ذلك إن توفر ثلاثة من الشهود الواعين يعد كافيا للبت في جميع الأحكام ، ومع هذا لن نهمل رواية ما يلي : بعدما عبر بطرس النار ، راح الجمهور الذي أصيب بالخوف يتخطف الأغصان المحترقة والفحم المتوهج حتى أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض التي اسودت من النيران ، و صنع الرب فيما بعد من خلال هذه الآثار التي آمن بها الناس ، الكثير من الأعمال الجليلة .

لقد سار بطرس وسط النيران ولم يحترق ثوبه الكهنوتي ولا الحربة

المقدسة التي كانت ملفوفة بأغلى أنواع الأقمشة ، ولدى خروجه لوح للحشود ورفع الحربة وهتف قائلا : يا رب ساعدنا ، وهنا أمسكت به الحشود ، أقول أمسكت به الحشود وجذبته نحو الأرض ، وأخذ كل فرد ـ تقريبا ـ من الرعاع يدفع ويتدافع ظانا أن بطرس على مقربة منه ويأمل في أن يلمسه أو يختطف قطعة من ثيابه ، وجرحه الرعاع ثلاثة جروح أو أربعة في ساقيه أثناء التزاحم ، كما كسروا عموده الفقري ، وأعتقد أن بطرس كان سيلقي حتفه هناك لولا ان ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام يساعده رفاق له كثيرون بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته حتى انتزعه منهم ، غير انه لا يمكننا كتابة المزيد بسبب حزننا وأسانا .

وبعد التئام جراح بطرس بقي حيث حمله ريموند بيليه ، وسألنا عن السبب الذي جعله يقف في النار ، فأجاب : لقد قابلني الرب في وسط اللهب ، وامسك بيدي ، وقال لي : إنه بسبب شكوكك حول اكتشاف الحربة المقدسة أيام تجليات القديس أندروز ، إنك لن تعبر دون جروح ، إنما لن ترى الجحيم ، واختفى الرب بعد هذه الكلمات ، واستأنف بطرس كلامه قائلا : هل تودون رؤية حروقي ، وكانت جراحه شديدة ، لكن الحروق التي على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء اخرى من جسده حتى يتأكدوا من صدق رؤياه ـ بطرس ـ التي تحمل من أجلها محنة النار ، وبعد رؤية وجهه وجسده مجد العديد الرب بهذه الكلمات : إن الرب الذي خلص هذا الرجل من هذه النيران الحامية ، النيران التي بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهما لا يمكنه ان يمر منها دون أن يحترق تماما ، يمكنه بكل تأكيد أن يكون حاميا لنا وسط سيوف المسلمين.

وبعد ذلك دعا بطرس ريمون دي جيل كاهن الكونت وسأله: لماذا اردتني أن أخوض محنة النار لأثبت رؤياي للحربة المقدسة وأوامر الرب ؟ لاشك أنني أعرف أفكارك المشوشة ، وعندما أنكر ريمون

هذه الظنون ، أفحمه بطرس بقوله : إنك لا تستطيع انكار الدليل التالي ، لأنه دامغ ، فقد عرفت الحقيقة ذات ليلة من مريم العذراء وادهمر ، لقد تملكتني الدهشة عندما عرفت أنك على الرغم من أنه لم يكن لديك أدنى شك في كلمات الرب وكلمات رسله ، لقد تمنيت موتي وأنا أحاول اقامة الدليل على صحة هذه الرؤى نفسها .

وبعدما كشف بطرس أكاذيب ريمون وذنبه أمام الرب ، بكى ريمون دي جيل بحرقة والم ، لكن بطرس واساه بقوله : لا أريدك أن تحزن ، لأن مريم العذراء المباركة واندروز المبارك سيحصلان لك على الغفران ،أمام الرب ، إذا أنت صليت ودعوة لهما بحرارة .

الفصل الثالث عشر

رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة إلى القدس

مزقت النزاعات في هذه الآونة صفوف الجيش ، لكن الرب ، ربنا ومرشدنا رتق هذه النزاعات حتى لاتضيع نعمه ، وعندما عرف حاكم طرابلس ، وهي مدينة قريبة من مخيمنا ، بأمر النزاعات ، استخف بنا حين طلب مبعوثونا الجزية منه ، وقال : من هم الفرنجة حتى أخشاهم وماقيمة فرسانهم وماهي مدى قوتهم ، فكروا بالأمر ، لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر ، ومع أنني لاأبعد عنهم أكثر من أربعة فراسخ ، لم يقع منهم هجوم واحد علي ، ولم أشهد رجلا مسلحا منهم ، أيها الفرنجة ازحفوا إلى طرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم ، لماذا علي دفع الجزية إلى وجوه لم أرها وإلى قوة لم أعرفها .

وأثار هذا الجواب الشكوى العامة وتساءل الجميع : انظروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات ، لقد احتجب الرب عنا من جديد ، وبتنا موضع ازدراء ، ووحدت هذه المشاعر الأمراء فأمروا أسقف البارة مع قسم من الجيش القيام بحراسة المخيم ، في حين يقوم الفرسان والرجالة يتقدمهم الأمراء ، بالزحف وهم على تعبئة ضد تحصينات طرابلس ومهاجمتها ، وعندما زحف جيشنا بتشكيلته القتالية المحددة خرج في الوقت نفسه أهل طرابلس وهم على ثقة بحشودهم الصاخبة ، خرجوا على تعبئة للتصدي لنا ، وكان هناك سور قوي ومرتفع جدا ومجرى مائي يمضي إلى طرابلس ، وقد شكل طريقا ضيقا بين المدينة والبحر الذي يحيط بطرابلس من جهات ثلاث .

وحصن المسلمون هذا السور حول المجرى المائي ، حتى صار بإمكانهم التراجع إلى الوراء في حال الاخفاق أو أن يمضوا إلى الأمام كما لو كانوا يمرون من حصن إلى حصن ، وعندما رأى الحجاج منظر أهالي طرابلس ، وهم واثقون بموقعهم القتالي وبأسلحتهم ، ابتهلوا جميعا فرسانا ورجالة إلى الرب ، ولوحوا برماحهم واحتشدوا جميعا وجاء زحفهم نحو صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث لو أنك شهدت ذلك الزحف لخيل إليك أنهم كانوا يتقدمون بمثابة أصدقاء لاأعداء ، وألقى الرب الرعب في صفوف قوات طرابلس ، وهربت هذه القوات من أول ضربة وامتلأت الأرض بدم المسلمين وسدت جثثهم مجرى الماء ، وكان مشهدا بهيجا رؤية المياه المتدفقة بالمجرى وهي تقذف بجثث السادة والعوام إلى طرابلس وقد فقدت رؤوسها ، ولقد فقدنا رجلا أو رجلين بينما يقال قتل سبعمائة من الأتراك .

وبعد هذا النصر عاد قادتنا إلى عرقة وصرحوا : لقد رأنا حاكم طرابلس اليوم ، ورأينا نحن بدورنا الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا سبل الهجوم ، وإذا وافقتم الآن دعونا نجعل صاحب طرابلس يتعرف غدا إلى معدن رجالنا حقا ، وهكذا لم يتجرأ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها في اليوم التالي ، و إثر ذلك عرض صاحب طرابلس على أمرائنا أن يدفع لهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، مع كميات من المؤن والملابس والخيول والبغال ووعد بتأمين سوق عامة مفتوحة ، وأن يعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا ما تخلينا عن حصار عرقة .

ووصل آنذاك رسل من الأمبراطور ألكسيوس إلى المخيم يحملون احتجاجا على استيلاء بوهيموند على أنطاكية خلافا للعهود التي قطعت للأمبراطور ، وسأوقف روايتي هنا لأذكر أن بوهيموند بات الآن يحتل أنطاكية لوحده لأنه تولى طرد أتباع ريموند بكل عنف من الأبراج التي كانوا يتولون حراستها ، وفعل ذلك عندما علم أن الكونت قد غادر معرة النعمان إلى داخل سورية ، هذا وذكر المبعوث

البيزنطي أن الكسيوس سيقدم لنا مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الفرنجة انتظاره حتى يوم عيد القديس يوحنا (أواخر حزيران) حتى يتمكن من السير معهم إلى القدس ، ومما هو جدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب في ذلك الوقت .

وارتأى كثيرون كان منهم كونت صنجيل تأجيل الزحف ، وقالوا : لنؤجل زحفنا حتى يصل الكسيوس ، فنحصل على منحه ، ثم إن وجوده سيوفر التجارة برا وبحرا ، ويمكننا أن نتوحد تحت قيادته ، وآنذاك ستلقى المدن جميعا أسلحتها وسيتملكها الكسيوس أو يخربها حسبما يشاء ، وهناك أيضا احتمال كبير أن الحجاج ، الذين أجهدتهم الخلافات الطويلة والمستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا إلى القدس ، العودة إلى ديارهم فور رؤية أسوارها ، لذلك فكروا بكل عناية في عدد المخاطر الكامنة في مواجهة الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم ، ولنشدد الحصار على عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم أخذها بالقوة ، ولنتذكر أننا إذا ما قررنا عدم جدوى الحصار ، وانتشرت بعيدا أخبار تخلينا عن متابعته ، سنصبح ونحن الجيش الذي عرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء .

وحاجج آخرون ضد هذه الآراء وقالوا : لقد ألحق الأمبراطور الضرر بنا دوما ، وتآمر علينا ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خشية أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحذو آخرون حذونا ، وليحذر الذين أساء الأمبراطور إليهم بالقول أو بالفعل من أن يثقوا به ، فمثل هذه الثقة لاطائل تحتها ، وماعلينا الآن إلا أن نستأنف زحفنا نحو القدس ، ولنضع ثقتنا بقائدنا المسيح الذي نجانا من المخاطر التي أشعرتنا باليأس ، وحمانا من أعمال الكسيوس وخداعه ، وسنحقق عندها أحلامنا بكل سهولة بوعد الرب ، ولدى سماعه بأخبار استيلائنا على القدس ، وتوفر التجارة المفتوحة ، سيرد على ذلك بأعمال مجدية وهدايا بدلا من الكلمات البراقة .

ووافقت الأكثرية من بين الحجاج على الرأي الأخير هـذا ، غير أن رغباتهم تعارضت مع رغبات مجلس الأمراء وتوفرت لهـذا بعض المصاعب ، وثارت المصاعب وتفجرت بسبب حاشية الكونت ريمـوند حيث كانت ضخمة ثم لأنه كان قد واجه الموت بكل شـجاعة دون أن يكون معه القادة الآخرون ، ولهذا أيضا حقق الكثير مـن المكاسـب الخاصة به .

وبشأن هذه المحنة أعلنا للناس ضرورة الصوم والصـدقات على أمل أن يتعطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بأيدينا عبـر بلاد كثيرة ، فيبلغنا الآن مشيئته ، وهكذا أقنعت صـلوات المؤمنين الرب ، فقد تجلى الأسقف أدهمر إلى سـتيفن أوف فـالنس ، الذي ذكرناه من قبل لدى الحديث عن رؤياه للرب على الصليب ، وضربـه أدهمر بقضيب عندمـا كان عائدا يمشي في طـريقه إلى البيت ، وكان هذا ذات ليلة من الليالي وقد ناداه : يا ستيفن ، فرد عليه سـتيفن : مولاي ، وعندما انعطف تعرف على أدهمر ، فسـأله أدهمـر : لماذا تجاهلت عدة مرات أوامري المتعلقة بصليب الرب ، مـع أوامـر أمنا مريم العذراء ، إنني أتحـدث عن الصـليب الذي كان في الصـفوف الأمامية لقواتي ، ليحمل هذا الصليب في الجيش ، والآن أخبرني أي أثر ديني هو أفضل من الصليب ، ألم يرشـدكم هـذا الصـليب إلى الحربة المقدسة وينفعكم بما فيه الكفاية ، إن سيدتنا مريم العـذراء تقول لكم الآن : إنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم رحمة .

وهنا صاح ستيفن : آه يا أعظـم الأسـياد ، أين هي مـريم المباركة ؟ وكشف أدهمر بالحال عن مريم رائعة الشـكل والملبس ، وهي واقفة على نحو تسـعة أذرع أو عشرة مـع أجـاثا المبـاركة ، وعذراء ممسكة بشمعتين ، وهنا تكلم ستيفن مع أدهمر ، الذي كان يقف إلى جوار مـريم وقـال : ياسـيدي إن الاشـاعات في الجيش كثيرة ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد احتـرقا في الجحيم ، وغير ذلك من القصص التي من الصعب تصديقها ، يضاف إلى هـذا إنني

أتضرع إليك وأتوسل أن تعطيني واحدة من الشموع لأحملها دليلا على أوامرك وأعطيها إلى الكونت .

فأجابه أدهمر : حدق بوجهي ، ألا تراه محترقا ، ثم خطا الأسقف نحو مريم العذراء وبعدما عرف قرارها عاد إلى ستيفن وقال له : لايمكن تلبية رغبتك ، لكن الخاتم الذي في إصبعك لافائدة لك منه ، فلا تلبسه ، واذهب إلى ريموند وقدمه إليه وأخبره أن العذراء المقدسة كثيرا ، تبعث إليك بهذا الخاتم ، وفي ساعة كل إخفاق تذكر في ذهنك السيدة مانحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب .

واستفسر ستيفن مجددا عن الأوامر المتعلقة بأخيه ، وأجابه أدهمر : دعه يقنع الأسقف المنتخب ليقيم ثلاثة قداسات للرب ولأرواح آلنا ، وتأمر أمنا مريم ألا تظهر الحربة المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدي الملابس المقدسة ، وأن يتقدمها الصليب على النحو التالي : وأمسك أدهمر الصليب معلقا على رمح ، وتبعه رجل يرتدي الثياب الكهنوتية والحربة المقدسة بيده ، وكان الأسقف يردد ساعتئذ : « أيتها العذراء مريم أبيدي الهراطقة بذاتك و أزيليهم»
واشتركت مئات الألوف من الأصوات لابل مالا حصر له في جوقة المرتلين السماوية ، ثم اختفت جماعة القديسين .

وفي الصباح التالي كان أول ماسأل عنه ستيفن هو عما إذا كانت الحربة ماتزال لدينا ، وعندما رآها انفجر باكيا ، وشرع يحكي الرؤيا السالفة و ما رآه وسمعه ، وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليم هيو أوف مونتيل أخو أسقف لى بوي إلى اللانقية حيث كان قد ترك صليب أدهمر وقلنسوته .

وفي تلك الآونة استدعى بطرس بارثلميو ـ الذي كان قد أقعده المرض الناجم عن الكلمات والجروح التي لحقت به ـ إليه الكونت مع القادة الآخرين وقال لهم : لقد دنا الموت مني ، وأنا على يقين

تام أنني سأحاسب في حضرة الرب على كل أعمالي ، أو كلماتي أو أفكاري الشريرة ، وأشهد الرب بحضوركم أنني لم أختـرع أي شيء بخصوص جميع الأشياء التي أبلغتكم عنها على أنها مـن عند الرب والرسل ، ولاأرتاب مطلقا أنكم سترون تحقق كلماتي إذا مـاخدمتم الرب بصدق ، وإثر هذا مات بطرس في الساعة التي حـددها الرب ، مات بسلام ودفن في البقعة التي عبر فيها النار وهو يحمـل الحـربة المقدسة .

وفي تلك الأثناء سـأل ريمـوند وكذلك فعـل أمـراء الجيش الآخرون ـ أهالي المنطقة عن أفضل الطـرق إلى القـدس وأقلهـا وعورة ، ولهذا قـدم إلينا بعض السـوريين ، وسـأستغل قـدومهم لأحكي أنه مابرح قرابة الستين ألفا من المسـيحيين يمتلكون جبـال لبنان والأحواز المحيطـة بـه لسـنوات مـديدة ويطلق على هؤلاء المسيحيين اسم الصوريين لمجاورتهم لمدينة صور ، لكن بعدما زادت قوة المسلمين والأتراك ، وكان ذلك بإرادة الرب ، أرغموا العديد من الصوريين الواقعين منذ أربعمائة سنة أو أكثـر تحـت نيرهـم على التخلي عن بلادهم وعقيدتهم المسيحية .

بيد أنه إذا كان بعضهم قد تحدى المسلمين بفضـل الرب وعونه ، فقد أرغموا على تسليم أطفالهم حتى يتم ختانهم وتعليمهم القرآن ، وتجاوز الأمر هذا الحد حيث كان الآباء يتعـرضون للقتـل وتلقـى الأمهات معاملة مشينة بانتزاع أطفالهن من أحضانهن ، ولقد دفعت النوازع الشريرة الملتهبة هذا الجنس مـن البشر إلى هـدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الأيقونات ، وثقب أعين الصـور التـي لايمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفا لنبالهم ، وقلبوا الهياكل وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد ، وكان إذا مارغب مسيحي ما في اقتناء صورة للرب أو لقديس في بيته ، فقد ترتب دفـع ثمـن لذلك شهرا بعد شهر وعاما بعدعام ، وإلا كان سيرى هذه الصـورة وقـد ألقيت بالوحل وحطمت ، وما أساروبه الآن غير مفرح بـالبته ، فقـد

وضعوا شبابهم بالمواخير ، وألزموا فتياتهم بتقديم الخمور من أجل المزيد من الفسق .

وكانت الأمهات يخشين البكاء من ذلك أو غيره من الآلام علنا ، لكن لماذا أبدد هذا الوقت كله على الصوريين ، فمن المؤكد أن هذا الجنس قد تآمر على قدس الأقداس وعلى تراثه ، ولولا أن الرب قد لجم بأمره ومبادرته الحيوانات المتوحشة عن شرور مماثلة ، مثلما فعل مرة مع جنودنا ، لقدر للفرنجة أن يلاقوا مصائب الصوريين ، ويكفي هذا لتغطية الموضوع .

وفي اجتماع مع ريموند صنجيل سئل الصوريون الذين أشرت إليهم من قبل عن الطريق ، فأجابوا : إن طريق دمشق ممهد وفيه مايكفي من المؤن ، لكن لاماء به لمدة يومين ، والطريق من خلال جبال لبنان مأمون وتتوفر به الضروريات ، لكنه وعر جدا بالنسبة للجمال ولدواب الحمولة ، ومع ذلك هناك طريق آخر محاذ للبحر ، غير أن به بعض المنافذ الضيقة جدا ، إلى حد أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكنهم صد هذا الحشد البشري كله ، ومع هذا إنه مدون في إنجيلنا لبطرس المبارك إنه إذا كنتم أنتم الذين قدر لهم الاستيلاء على القدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلا ، وهذا الانجيل الذي كتب بيننا لايتضمن اختياركم للطرق فقط ، بل الكثير من أعمالكم المتقدمة ومسار الأحداث المقبلة .

وفي أثناء تبادل الآراء هذه عاد وليم هيو أوف مونتيل بالصليب السالف الذكر ، وأثارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنه خلافا لراي ريموند وأمراء آخرين أحرق هؤلاء ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة

وانفجر ريموند باكيا ، وأخذ يزدري نفسه والآخرين ، لكن الرب أغفل مشاعره مراعاة لارادة جمهور الحجاج ، هذا وراح من جانب

آخر غودفري ـ الذي كان تواقا الى استئناف الزحف يحرض الناس ، وهكذا وصلنا ـ بعدما تخلينا عن هذا الحصار الكريه والممقوت لعرقة ـ الى طرابلس حيث حاول ريموند ـ على الرغم من مواجهته للمعارضة الجماعية للقادة ـ أن يغريهم بمختلف السبل بالتوسلات والمكافآت بحصار طرابلس .

وهنا تجلى القديس أندروز الى بطرس ديزيد يريوس ـ وهو رجل كنا قد ذكرناه من قبل ـ وأمره بقوله : إذهب وأبلغ الكونت وقل له : توقف عن ازعاج نفسك وازعاج الآخرين لأنك لا يمكن لك توقع أي مساعدة من الرب حتى يتم الاستيلاء على القدس أولا ، ولا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقة ، ولا تحمل هما اذا لم تسقط هي ومدن أخرى على الطريق ، وفي الحقيقة هناك معركة وشيكة سيتم اثرها الاستيلاء على هذه المدينة ومدن أخرى ، لهذا أقلع عن ارباك نفسك مع أتباعك ، وجد باسم الرب وأعط بسخاء من عطاياه لك ، وكن أيضا رفيقا وصديقا مخلصا لرجالك وسيعطيك الرب القدس والاسكندرية والقاهرة اذا فعلت ذلك ، ولكنك اذا لم تفعل هذا فانك لن تحصل على الجوائز التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ثروة حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي تفوه بها الكاهن لكنه كان خضوعا باللسان فقط ، ذلك أنه تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقتيره بالكنوز الهائلة التي استحوذ عليها من صاحب طرابلس ، زد على هذا فقد أثار غضب أتباعه بالشتم والتعنيف ، وقد حكى بطرس ديزيد يريوس ذلك مع مسائل أخرى كثيرة ، نأتي على ذكر بعضها في هذا الكتاب .

فقد قدم الي بطرس ديزيد يريوس أناريمون دي جيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر بمغادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا أتى فيها شخص وأمره بقوله : اذهب الى كنيسة ليونتيوس المبارك حيث ستجد آثار أربعة قديسين ، فخذها واحملها الى

القدس ، ومضى الشخص معه وأراه الآثار ومكانها ، وأخبره بأسماء القديسين ، ومع ذلك تشكك بطرس بالرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل الى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحيا منه ، وهكذا ظهر القديس نفسه مرة أخرى ، وتهدده لاهماله أوامر الرب ، وقال : إنه اذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الأسبوع ، فستلحق به مضار كبيرة هو وسيده ايزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وحكمته وببركته التي نفعتنا .

وقد رددت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج وريموند صنجيل وآخرين بعدما حكاها لي بطرس ، وتوجهنا بعد ذلك مباشرة الى كنيسة ليونتيوس ونحن نحمل الشموع ، التي قدمناها مع النذر للرب وللقديسين في الكنيسة نفسها ، وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يحددها لنا لتكون رفيقا لنا وعونا ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلا من ازدراء زمالة الحجاج ، ومن نفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحي ، وهكذا يربطوننا بالرب ، وأتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس ديزيد يريوس الى مكان آثار القديسين ، وحسبما روي من قبل تماما وجدنا بقايا القديس كيبريان والقديس أوميخيوس ، والقديس ليونتيوس والقديس يوحنا الذهبي الفم ، كما وجدنا هناك ايضا خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن ، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا في تعريفها ، فقال بعضهم إنها للقديس مركوريوس ، بينما ذكر آخرون أسماء قديسين آخرين ، وبغض النظر عن غموض أمرها ، لقد أراد ديزيد يريوس جمعها ووضعها مع الآثار الأخرى .

فقلت أناريمون دي جيل بكل قوة وأمام الجميع : إنه اذا رغب هذا القديس في الذهاب معنا الى القدس فليعلن اسمه وليبين رغبته وإلا فسيبقى في هذا الصندوق ، ليس علينا أن نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ، ونتيجة لموقفي هذا تركنا العظام التي لم يتعرف عليها أحد في ذلك الوقت .

وفي الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها بالأقمشة وتغطيتها ، وقف أمامه شاب وسيم في حوالي الخامسة عشرة من عمره ، أثناء صلاة العتمة وسأله : لماذا لم تحمل رفاتي مع الآخرين هذا اليوم ؟ وهنا سأله الكاهن : ومن أنت ؟ فرد عليه الشاب متسائلا : ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ واعترف بطرس بجهله قائلا : لا يا سيدي ، وعندما كرر بطرس الاجابة نفسها عنفه الشاب بقوله : أخبرني بالحقيقة ، وهنا أجابه بطرس : يقال يا سيدي إن القديس جرجس هو حامل راية هذا الجيش ، وهنا قال الشاب : صحيح الذي تقوله ، إنني أنا القديس جرجس وأنا آمرك أن تجمع رفاتي وتضعها مع آثار الآخرين

ومع هذا لم ينفذ الكاهن الأمر ، ومرت الأيام فعاد القديس جرجس اليه وطلب منه بغلظة : لا تدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتي وخذ أيضا زجاجة من دم مريم العذراء والشهيدة تقلا ، وستجدها بالقرب ، ورتل القداس ، ووجد بطرس ديزيد يريوس هذه المرة هذه الأشياء جميعا ونفذ أوامر القديس جرجس .

وقبل أن أتابع رواية قصتنا مفيد أن أذكر خبر الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الشاسع الغريب ، وعبروا المحيط حبا بالقيام برحلة الحج تحت راية الصليب ، فعندما سمع هؤلاء الانكليز بأخبار الحملات تحت راية الصليب التي تشن باسم انتقام الرب من الذين دنسوا الأرض التي ولد فيها المسيح ورسله أبحروا في البحر الانكليزي ، وداروا حول سواحل اسبانيا ، وبعد جهود جبارة وصلوا الى ساحل أنطاكية واللاذقية قبل وصول جيشنا ، وقد أمن الانكليز لنا مع الجنوية سبل التجارة مع قبرص و الجزر الأخرى ، فأثبتوا بذلك فائدتهم و معونتهم ، و كانت هذه السفن تبحر يوميا وتمخر عباب البحر ذهابا وايابا فتبث الرعب في قلوب المسلمين وتجعل ابحار السفن الاغريقية أمرا ميسورا ، فضلا عن هذا عندما رأنا الانكليز ننطلق نحو القدس ، ورأوا خشب السرو المصنعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من

الثلاثين سفينة غير تسع سفن ، عندما رأوا هذا هجر بعضهم السفن ونزلوا الى الشاطىء ، في حين أحرق آخرون قواربهم وبادروا بالانضمام الى الزحف ضد القدس .

وتمهل أمراؤنا أمام طرابلس حتى غرس الرب في قلوبهم الرغبة في مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة ، وتحركنا على خلاف عاداتنا وأوامر الأمراء ليلا ، وسرنا طوال الليل فوصلنا الى بيروت في اليوم التالي ، وبعد أن استولت طليعتنا فجأة على « مرتقى صور » وصلنا الى عكا دون أن يعترض سبيلنا معترض وأنجز ذلك خلال أيام قليلة ، وخاف حاكم عكا من الحصار ، وانتظر بفارغ الصبر رحيلنا وأقسم لريموند على أنه سوف يسلم نفسه وعكا لحملة الصليب اذا ما استولينا على القدس ، أو بقينا في فلسطين لمدة عشرين يوما دون أن نضطر الى الاشتباك مع ملك مصر ، أو اذا هزمنا هذا الملك ، ووعد حاكم عكا أنه سيقدم في تلك الأثناء صداقته ، ورحلنا بعد ذلك من عكا ، وكان ذلك في ملساء أحد الأيام وعسكرنا على مقربة من المستنقعات المجاورة .

قصة الطائر الذي حمل رسائل بقتل حملة الصليب :

وحسبما جرت العادة في تلك الأثناء ، راح بعضنا يجري هنا وهناك بحثا عن بعض الضروريات وبعضنا كان يبحث عن خيام أصدقائه ، وفيما نحن كذلك ألقى صقر طار فوق المعسكر بطائر مصاب بجرح قاتل في المعسكر الذي كان يعيش ساعتئذ في لغط وضوضاء ، وعندما التقط أسقف ابت الطائر وجده يحمل رسالة تقول : « التحيات من صاحب عكا الى أمير قيسارية ، لقد اجتاح بلادي جيل من الكلاب ، من جنس أحمق فوضوي عنيد ، فاذا كنت حريصا على سلامتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين الحاق الأذى بهم ، وطالما يمكنك فعل ما تريد بيسر ، انقل هذه الرسالة الى المدن

والحصون الأخرى » ، وفي الصباح عندما انتظم الجيش وكان في حالة استرخاء نشرت محتويات الرسالة ، وبذلك تجلى لنا عطف الرب ، وهو عطف منع الطيور الطائرة من الحاق الأضرار بنا وكشف لنا أسرار عدونا .

فحمدنا الرب القادر ومجدناه على كل شيء ، ثم رحلنا بلا وجل بكل خفة و نشاط ، و كنا نسير في أرتال امتدت من الأمام الى الخلف ، و عندما سمع سكان الرملة المسلمون أنباء عبورنا لنهر قريب ، تخلوا عن قلاعهم و أسلحتهم مع كثير من الحبوب في الحقول و محاصيل محصودة ، و هكذا عندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين أن الرب كان يحارب من أجلنا ، و نذرنا هنا النذور للقديس جرجس قائدنا المعترف به ، و قرر قادتنا و الجمهور اختيار أسقف (لمدينتي اللد و الرملة) كما وشعرنا أن القديس جرجس سيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قائدنا المخلص من خلال موطن اقامته .

وبما أن الرملة تبعد قرابة خمسة عشر ميلا عن القدس ، فقد عقدنا مؤتمرا هناك ، وفيه قال بعضهم : أجلوا الزحف الآن ، وتحولوا نحو مصر ، فاذا استطعنا بفضل الرب الاستيلاء على مملكة مصر فاننا لن نربح القدس فحسب بل القاهرة والاسكندرية أيضا مع ممالك أخرى كثيرة ، ومن جانب آخر اذا ما زحفنا على القدس ثم تخلينا عن الحصار لشح المياه فاننا لن ننجح أبدا .

وقال بعضهم الآخر : على الرغم من أن قواتنا تكاد لا تبلغ ألفا وخمسمائة من الفرسان مع عدد ضئيل من الرجالة المسلمين ، فإن هناك من يفضل القيام بحملة الى أرض غريبة ونائية تعزلنا عن مساعدة بني جلدتنا ، وبناء عليه إن الفرص هنا قليلةفي الاحتفاظ بأي مدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو استحواذ طريق للفرار عند الحاجة ، وبما أنه ليس في هذا أي فائدة علينا التمسك بطريقنا وليتول الرب شؤون الحصار والعطش والجوع والأمور الأخرى .

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

ووضعنا اثقالنا على ظهور جمالنا وثيراننا ودواب الحمولة الاخرى ثم اندفعنا نؤم القدس ، بعد ما حصلنا على الأذن من الأسقف الذي تركنا معه حامية ، وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع بالاستيلاء على القلاع والبيوت ذات الحدائق ، لم نتذكر ولم نعبأ بوصايا بارثلميو واوامره بالاقتراب من القدس ، عندما نكون منها على مسافة فرسخين ، الا ونحن حفاة الاقدام ، وكان من التقاليد المتبعة عدم الاستيلاء من قبل اي منا على اية قلعة او مدينة ترفع واحدا من اعلامنا ، او بعد ما يكون واحد منا وضع يده عليها ، وهكذا دفع الطموح العديد منا الى الخروج ليلا من فراشهم في منتصف الليل دون ان يصحبهم رفاقهم للاستيلاء على القلاع الجبلية والمنازل التي تحيط بها الحدائق في سهل الاردن ، ومع هذا فان قلة حافظت على امر الرب والتزمت به فسارت حفاة الاقدام ، وكان هؤلاء يعبرون عن الأسى والأسف بتنهدات عميقة الى الرب ، بسبب الخروج على ارادته ، ولم يتذكروا صديقا ولا رفيقا واحدا ممن سار في طريق الباطل : ولدى الاقتراب من القدس بزحفنا العام الارعن ضرب اهل المدينة طلائعنا ، واصابوا خيولنا بجراح شديدة ، كما اصابوا عددا كبيرا من رجالنا وقتلوا ثلاثة او اربعة من بين صفوفنا .

واذا ما تحولنا نحو الحديث عن الحصار يلاحظ ان غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورماندي عسكروا الى الشمال ، وضربوا الحصار حول القدس من كنيسة القديس ستيفن التي تقع في الوسط الى البرج الذي يقع في الزاوية مجاورا لبرج داود . وعسكر ريموند مع جيشه في الغرب ، وحاصر المدينة شروعا من خط الدوق حتى سفح

جبل صهيون ، ومع ذلك قام واد عميق بين معسكره والاسوار ، حال دون سهولة الاقتراب من المدينة ، وكان سببا في ان يرغب بتغيير معسكره وموقعه ، وفيما يقوم ريموند بحصار القدس ، توقف لزيارة كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وقد تأثر كثيرا ، الى حد انه خاطب الامراء والحضور بقوله : ما الذي سيحدث لنا لو اننا تخلينا عن هذه المنح المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، لربما كانوا دنسوها او حطموها لكراهيتهم للصليبيين ؟ ومن يدري اوليس من الممكن ان تكون هذه المنح من الرب اختبارا لمعرفة مدى حبنا له ؟ انني اعرف ان الاخفاق في حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يقوم بحرماننا من مثل هذه البقاع في القدس .

وبناء على ذلك وخلافا لرغبات الامراء ، امر كونت طولوز بنقل معسكره الى جبل صهيون ، وسببت هذه الحركة استياء رجاله الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير مكان المعسكر ، والاستمرار في المراقبة ليلا ، وهكذا بقي الاكثرية في المعسكر الاصلي وقلة هم الذين ذهبوا الى جبل صهيون ، وظل الكونت يحمي موقعه يوميا بدفع مبالغ طائلة من المال الى فرسانه ورجالته .

وسأستطرد الآن لأتولى ذكر بعض المواقع المقدسة : هناك قبر داود وقبر سليمان ، وقبر الشهيد الاكبر ستيفن ، وهناك ماتت مريم المباركة ، وهنا اكل المسيح وظهر بعد قيامه لحواريه ولتوماس ، وفي هذا المكان بالذات اوقظ الرسل بمجيء الروح القدس .

وبعد الشروع بحصار القدس اخبر ناسك في احد الايام عددا من الأمراء على جبل الزيتون : ان الرب سيعطيكم القدس ، اذا هاجمتموها غدا حتى الساعة التاسعة ، واجابه المسيحيون ، ليس لدينا اية الة من الات الحصار ، فقال الناسك : ان الرب قادر على كل شيء الى حد انه اذا اراد فانكم ستستطيعون تسلق السور بسلم واحد ، لأنه مع الذين يعملون من اجل الحق ، وبناء عليه هاجموا

القدس في صباح اليوم التالي وظلوا حتى الساعة الثالثة يقاتلونها باسلحة الحصار التي استطاعوا تأمينها اثناء الليل ، فدمروا السور الخارجي واجبروا المسلمين على التراجع نحو السور الداخلي ، وتسلق عدد ضئيل من المسيحيين الدفاعات الداخلية ، وفي اللحظة التي بات فيها سقوط المدينة وشيكا ، توقف الهجوم بسبب الوهن والخوف .

وبعد هذا التخازل راح المسيحيون يبحثون عن الطعام في المناطق المجاورة واهملوا الاعداد لهجوم جديد ، وآثر كل واحد منهم اشباع فمه وبطنه ، والانكى من هذا كله انهم لم يصلوا للرب ليخلصهم من الشرور الكبيرة والكثيرة التي باتت تهدد حياتهم بالذات ، فقد صدرت مخاطر جديدة عن المسلمين الذين سدوا افواه الابار ، ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل هذا يذكرنا بالرب الذي «يحول الانهار الى برية وعيون الماء الى ارض جافة لمن يعيشون فيها » وهكذا اصبح الماء شحيحا جدا لما بينت من اسباب

وتتدفق مياه بركة سلوان ـ وهي نبع كبير عند سفح جبل صهيون ـ مرة كل ثلاثة ايام غير انها كانت حسب قول السكان المحليين ، تتدفق يوم السبت فقط ، وتصبح مستنقعا في بقية الايام ، ومن المؤكد انه ليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة ، باستثناء انها ارادة الرب ، وتذكر الروايات انها عندما كانت تتدفق في اليوم الثالث ، كان التدافع المجنون لشرب الماء يجعل الكثيرين يلقون بانفسهم بالبركة ، ويتسبب هذا في غمار التزاحم الشديد بهلاك كثير من دواب الحمل والماشية ، فقد كان الاقوياء يتدافعون باستماتة ويخوضون في البركة الغاصة بالحيوانات الميتة والبشر المتصارعين حتى المصب الصخري الذي يتدفق منه الماء ، في حين كان الضعفاء يضطرون الى الاكتفاء بالماء الملوث .

وكان الضعفاء يزحفون على الارض بجوار النبع بافواه فاغرة ، وقد اخرسهم جفاف السنتهم ، يزحفون وقد امتدت ايديهم التماسا

للماء من الذين هم أكثر حظا ، وفي الحقول كانت تقف الخيول والبغال والمواشي والاغنام مع حيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على ان تخطو خطوة واحدة ، وكانت هذه الحيوانات تذوي وتموت عطشا وتتفسخ في أماكنها وتملأ الجو بروائح الجيف النتنة ، واضطر المسيحيون ، والحال كما وصفت ، الى حمل الماء بجهد ومشقة من عين تبعد فرسخين او ثلاثة ، والذهاب لسقاية مواشيهم هناك ، لكن عندما عرف المسلمون ان رجالنا يروحون جيئة وذهابا في طرق وعرة وهم بدون سلاح كمنوا لعدد كبير منهم ، فقتلوا العديد واسروا الكثير ، واستولوا على مواشيهم ، وكان مبلغ خمسة او ستة نوميسما (صولدي) لايكفي لشراء مياه نقية تكفي شخصا واحدا لمدة يوم واحد .

اما الخمرة فلم يرد ذكرها الا فيما ندر ، وممازاد من شدة العطش ، الحر اللافح والتراب الخانق ، والرياح الشديدة ، لكن لماذا ابدد الوقت في ذكر هذه الامور الفانية ؟ المهم انه لم يكن سوى قلة منا يفكرون في الرب او في ضروريات الحصار ، ولم يصل حملة الصليب طلبا لرحمة الرب ، وهكذا كنا نتجاهل الرب في شدائدنا ، وهو بدوره لم يهتم بالجاحدين .

وتواترت الأنباء في ذلك الحين برسوست من سفننا في يافا ، وجاءت معها ايضا مطالبة البحارة بارسال حامية تتولى حماية ابراج يافا وسفنهم في الميناء ، وكانت يافا تبعد مسيرة يوم عن القدس ، وهي ميناء هذه المدينة ، ولم يكن قد بقي من يافا غير القليل فالموقع قد دمر باستثناء برج واحد بقي سليما في قلعة دمرت تدميرا شديدا ، وفرح الحجاج وبعثوا الكونت جيلديمار كاربينيل ومعه عشرين فارسا وحوالي الخمسين من الرجالة ، ثم اردفوه بريموند بيليه مع خمسين من الفرسان ، وأخيرا بوليم سابران ورجاله ، وعندما وصل جيلديمار الى سهل على مقربة من الرملة كان هناك اربعمائة من قوات العرب الأقوياء مع مائتين من الأتراك يسدون الطريق .

واعاد جيلديمار فرسانه ورماته ، الذين كانوا في الصفوف الأمامية ، الى الخلف بسبب قلة عدد رجاله ، ثم مالبث أن زحف ضد الأعداء وهو واثق بعون الرب له ، واندفع الأعداء الى الأمام وهم على ثقة أنهم سيتمكنون من ابادة المسيحيين ، واطلقوا الذشاب ، واحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان وذلك بالاضافة الى اشارد أوف مونتميريل وكان فارسا شابا نبيلا يتمتع بشهرة كبيرة ، فضلا عن هذا فتكوا تماما بكل رماتنا وجرحوا اخرين من قوات جيلديمار ، ومع هذا لم يخل الأمر من تكبيدهم بعض الخسائر الفادحة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر لم يضعف الهجوم الاسلامي ، وايضا لم يدب الوهن الى صفوف فرساننا ، ذلك أنهم كانوا فعلا عساكر المسيح ، ولذلك حملتهم الجراح ، لابل الموت نفسه ، على شن الهجوم بقوة أكبر ، وكانوا يفعلون ذلك كلما اشتد الضغط عليهم ، واخيرا وبعد ان ارهقهم التعب وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة كبيرة من الغبار في الأفق ، وجاء ذلك عندما كانت الفرقة على وشك التراجع ، وصدر هذا الغبار عن ريموند بيليه ورجاله الذين غمزوا جيادهم واندفعوا فأثاروا بهجومهم الجنوني كثيرا من الغبار مما أوهم العدو باقتراب فرقة كبيرة .

وهكذا أبيد الأعداء بفضل الرب وأرغموا على الفرار بعدما قتل قرابة المائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة ، ومرد كثرة الغنائم الى عادة متبعة بين المسلمين هي انهم اذا لاذوا بالفرار ، وطاردهم عدوهم مطاردة شديدة يرمون بأسلحتهم ثم بألبستهم واخيرا يرمي كل منهم بمزاده ، وهكذا قتل هذا العدد الصغير من فرساننا الأعداء المنهزمين وظلوا يفعلون ذلك حتى نال منهم التعب كل منال ، وبعدما اخذوا أسلاب الذين لاذوا بالفرار .

وبعد هذا القتال جمعت الغنائم وجرى تقسيمها ، ثم توجه

فرساننا نحو يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح كبير بالخبز والنبيذ والسمك ، ولم يكترثوا بالمخاطر فأهملوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة من جهة البحر في منصة المراقبة لكل سفينة ، وسرعان ماوجد البحارة المنتشون وغير المبالين انفسهم محاطين من جهة البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسي هو اهمالهم تعيين خفراء يتولون الحراسة والمراقبة ، وعند الفجر وجدوا انه ليس امامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، لذلك تخلوا عن سفنهم ، ولم يحملوا معهم سوى الغنائم ، وبذلك عادت قواتنا الى القدس وهي بشكل مامنتصرة ومهزومة في آن واحد ، ونجت احدى السفائن ، لأنها كانت متغيبة تقوم بأعمال النهب ، وعندما عادت الى يافا محملة بالمغانم رأت الأسطول المسيحي أسيرا قد أحاطت به قوة أكبر منه ، فغيرت على الفور اتجاهها وعادت بالتجديف والقلوع الى اللاذقية ، ونقلت الى رفاقنا والأصدقاء صورة الحالة الحقيقية لأوضاع القدس .

ولقد عرفنا اننا نستحق ماأصابنا ، لأننا لم نؤمن برسائل الرب ، ولهذا فقد حملة الصليب الأمل برحمة الرب ، وبناء عليه ساروا الى سهل الأردن ، وهناك جمعوا السعف وتعمدوا في نهر الأردن ، وبما أنهم شاهدوا القدس ، فقد خططوا الآن للتخلي عن حصارها والتوجه الى يافا ، ومن ثم العودة بأي شكل ممكن الى بلادهم ، غير ان الرب لم يهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

وتمت الدعوة الى عقد اجتماع عام لينظر بالخلافات العامة بين القادة ، ولاسيما بعدما أقدم تانكرد على الاستيلاء على بيت لحم حيث رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية ، وطرح في الاجتماع ايضا قضية اختيار واحد من الأمراء يكون حاميا للقدس اذا مامنحنا الرب اياها ، وقيل وقتها ان النصر سيكون جهدا مشتركا ، ولكن اذا ضاعت القدس فان ذلك سيكون اهمالا مشتركا لأن احدا لم يتول حمايتها .

واعترض الأساقفة ورجال الدين قائلين : من الخطأ اختيار ملك وتعيينه في المكان الذي تـــألم فيه الرب وتـــوج بتـــاج مـــن شوك ، افترضوا ان الشخص المختار قال في قلبـه : انني جـالس على عرش داود ممتلك لممتلكاته ، وافترضوا انه أصبح داودا وهـو منحط العقيدة والأخلاق ، لاشك أن الرب سيطيح به ويحل غضـبه بالناس والمكان ، زد على هذا ان الرسـول قـد أعلن انه « عندمـا سيكون قدس الأقداس قد جاء فسيتوقف المسح » لأنه اتضح للناس جميعا انه قد جاء و « علينا اختيار وكيل يتـولى حـراسة القـدس ويقوم بقسمة الأموال والدخول بين حماة المدينة » ولهـذا السـبب ولأسباب أخرى لم يتم الانتخاب الا بعد ثمـانية أيام مـن سـقوط القدس ، ولم يتولد عن هذا النزاع خير ، ولم تتضاعف الا متـاعب الناس وأحزانهم يوما تلو الآخر .

وأخيرا أبلغنا الرب الرحيم الطيب حتـى نحتـرمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه اذا سألوا : أين هـو ربهـم ، لقـد أبلغنا بوساطة رسالة من ادهمـر اسـقف لى بـوي ، وعرفنا كيف نسأله وكيف نكسب رحمته ، غير اننا أذعنا أوامـر الرب علنا دون ان نربط بينها وبين اســمه ونلك خـــوفا مـــن أن يعصـــيها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنوبهم ، وقد بعـث الرب الينا برسل عديدين ، لكن لكونهم من أخـواننا بقيت بـراهينهم بـدون اعتبار .

وأعطى ادهمر في نلك الوقـت أوامـره الى بـطرس ديزيديريوس بقوله : على الأمراء والعامة وحملة الصليب الذين قدموا من بـلاد بعيدة ، والذين هـم الآن هنا لعبـادة الرب رب كل الحشـود ، أن يحرروا أنفسهم من عالم الدناسة ، وليدر كل واحـد منهـم ظهـره للخطيئة ، وقل لهم : اخلعوا بعد هذا احذيتكم وسيروا حفاة بأقدام عارية حول القدس ، ولاتنسوا أن تصوموا ، فـاذا امتثلتـم لهذه الأوامر ستسقط المدينة في خـاتمة الأيام التسـعة بعـد هجـوم

عنيف ، وحذرهم انهم ان لم يفعلوا ذلك فان الرب سيزيدهم بمصائب أكثر من الماضي .

وبعدما أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد مع اخي ادهمر ووليم هيو وبعض الكهنة بذلك ، دعا هؤلاء السادة المبجلين الى اجتماع عام وخاطبهم بما يلي :

ايها السادة أيها الرجال إنكم تعرفون أسباب الرحلة مع أسباب تعبنا الشديد ، وتعلمون ايضا اننا تأخرنا كثيرا واهملنا بلا مبالاة اقامة مايلزم من معدات لحصار القدس ، واكثر من هذا اننا لم نكتف بعدم اكتراثنا في أن يكون الرب ودودا معنا ، بل اثرنا غضبه بكل شكل يمكن ان يتخيله عقل الانسان وفي كل أمر من الأمور ، ثم اننا نبعده عنا وننبذه ونجعله غريبا بسبب دنس أعمالنا ، والآن اذا كنتم ترضون فلندع الماضي جانبا ، ولتعم بين الأخوة روح المغفرة ، وبعد ذلك لنتخل عن كبريائنا أمام الرب ، فنسير حول المدينة المقدسة حفاة الأقدام ، ومن ثم نبتهل لتنزل علينا رحمة الرب بوساطة شفاعة القديسين .

لنصل قائلين ان الرب القادر الذي تخلى عن عرش ملكوته في السماء فأصبح بشرا من أجلنا ، وصار منا نحن عبيده ، الرب الذي دخل القدس متواضعا يركب على أتان وسار في موكب تحيط به الحشود و تلوح له وتقدم أيات التكريم ، لكي يعاني بعد ذلك من الآلام على الصليب تضحية منه في سبيلنا ، لنصل لهذا الرب عله يفتح لنا أبواب القدس ويسلمها لنا تمجيدا لاسمه وتكريما ، وهو يصدر أحكامه على أعدائه الذين استولوا عليها بدون حق ، ودنسوا مكان الامه ودفنه ، والذين يبذلون الآن كل جهد ممكن لحرماننا من المكاسب العظيمة الموجودة في حرم نزوله الرباني وخلاصنا .

ولاقت هذه الأوامر قبولا عاما ، وصدرت التعليمات بأن يتولى رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء ، وأن

يكون ذلك في اليوم السادس من الاسبوع على أن يحملوا الصلبان وآثار القديسين ، وينفخوا بالابواق ، ويلوحوا بالأسلحة ، وليسيروا حفاة الأقدام ، وبكل سعادة نفذنا أوامر الرب والأمراء ، وعندما سرنا الى جبل الزيتون وعظنا الناس في موضع صعود المسيح بعد القيامة ، وحرضناهم في هذه المرة قائلين : لقد سرنا وراء الرب الى مكان الصعود ، وبما اننا لن نستطيع فعل المزيد ، فلنقم الآن بالصفح عن الذين اساءوا الينا حتى يكون الرب القدير بنا رحيما .

لاأرى من حاجة لقول المزيد عن هذا الموضوع ، فلقد غمرت الجيش روح من التسامح كبيرة ، وقدمنا التبرعات السخية ، وتضرعنا في تلك الأثناء الى الرب سائلين اياه الرحمة ، والححنا بالسؤال أن لايتخلى عن شعبه في اللحظة الأخيرة ، بعدما جلبهم بهذه الطريقة المجيدة والمعجزة من المسافات النائية فأوصلهم الى مسعاهم من أجل القبر المقدس ، وكان الرب هذه المرة الى جانبنا فانقلب سوء حظنا الى طالع طيب وبات كل شيء على مايرام .

ومع أنني ازحت جانبا الحديث عن أحداث كثيرة ليس بإمكاني إغفال ذكر الحادثة التالية : أثناء الزحف الصاخب حول مدينة القدس راح المسلمون والأتراك يسيرون على طول أعلى أسوارهم وهم يسخرون منا ويدنسون بالضربات والأعمال البذيئة صلباننا وضعت على أذرعة من خشب بطول الأسوار ، غير أننا اندفعنا – من جهتنا – الى الأمام قدما ولم نأبه بهم واثقين باقتراب رحمة الرب بسبب هذه الاساءات ، وثابرنا على العمل ليلا ونهارا للاعداد للهجوم النهائي .

وقام غودفري ومعه كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز بتعيين غاستون بيارن للاشراف على العمال الذين كانوا يبنون

الحواجز والسواتر ومعدات الحصار ، وجاء تعيين هذا النبيل بالنظر لكفاءته وأمانته ، وقد ثبت أن ذلك كان اختيارا حكيما ، لأن

غاستون وضع نظاما لتقسيم العمل ، وسارع بتنفيذ المهمة في حين اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية ، كما وكلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات مماثلة في جبل صهيون ، وكلف اسقف البارة بوظيفة الاشراف على المسلمين وسواهم من العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب ، فقد أرغم رجال ريموند مسلمي القلاع التي جرى الاستيلاء عليها على العمل كعبيد ، فكنت ترى خمسين أوستين رجلا منهم يحملون على اكتافهم دعامة بناء لايقوى على جرها اربعة ازواج من الثيران ، والآن لن أزيد من ارهاقكم بالمزيد من التفاصيل .

لقد عملنا جميعا بكل جد ونشاط وتعاون ، ولم يعق عملنا التراخي أو عدم الرغبة ، وكان فقط الصناع ـ الذين كانت تجمع لهم الأموال مع رجال ريموند الذين كانوا يحصلون على اجورهم من خزانته ـ هم وحدهم ممن عمل مقابل المال ، ومن المؤكد أن يد الرب كانت معنا ، فسرعان ماكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد اجتماع عام قرر القادة ان يكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر ، وقالوا للناس عليكم في هذه الأثناء ان توقفوا انفسكم على الدعاء والصلوات الليلية ، وقدموا دواب العمل التي لديكم والخدم الذين يعملون لديكم الى الصناع والنجارين الذين يعملون في جر الأخشاب والأعمدة مع القوائم والفروع الضرورية لاقامة سواتر الحصار ، ايها الفرسان انه سيكون نصيب كل اثنين منكم في أعمال البناء اقامة ساتر دائري واحد أو سلم واحد ، اعملوا جميعا في سبيل الرب بكل جد ، فقد شارفت مهمتنا على الانتهاء ، ونشط الجميع في العمل بسعادة ، وحددت مواقع الهجوم الخاصة بكل واحد من الأمراء كما وعينت مواضع الات الحصار .

وشاهد المسلمون من الداخل أسلحة الحصار المكتملة ، فقاموا

بتدعيم النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل القيام بشن هجوم ناجح ، ولاحظ غودفري ومعه كونت فلاندرز وكونت نورماندي عمليات التدعيم التي يقوم بها المسلمون ، وردا على ذلك قاموا في الليلة التي تقدمت على اليوم المحدد للهجوم بنقل مواقع أسلحة الحصار من سواتر و حواجز و أبراج الى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي يهوشافاط ، صدقوني ان فك هذه الآلات ونقلها الى مسافة تزيد على الميل ، ومن ثم اقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين ، وصعق المسلمون في صباح اليوم التالي عندما راوا مواقع الاتنا وخيامنا ، وابادر الى القول : اننا ايضا دهشنا نحن المؤمنين الذين راوا يد الرب في كل ذلك .

ولكي ابين لكم سبب حقيقة التحرك الى الشمال ينبغي ان أوضح أن عاملين اثنين كانا وراء تغيير مواقع الات الحصار ، ففي الشمال هيأ استواء سطح الأرض اقتراب افضل لمعدات الحصار من الأسوار ، كما أن بعد المكان الشمالي جعله ضعيفا وهذا ماجعل المسلمين يتركونه بدون تحصين ، ولم يكن مجهود كونت طولوز ادنى من ذلك أو اقل عند جبل صهيون جنوبا ، وقد تلقى مساعدة من وليم امبرياكو وبحارته الجنوية الذين فقدوا سفنهم ـ كما ذكرت من قبل ـ في يافا ، لكنهم كانوا قد انقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفؤوس والمعاول والبلط ، وهذه جميعا ادوات لاغنى عنها ، وسأتخلى الآن عن تعداد هذه التفاصيل وأعود لمواصلة قصة الهجوم على القدس :

و بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم ، فطبقا لأحسن التقديرات التي قمنا بها مع تقديرات الآخرين كان هناك قرابة الستين الفا من المقاتلين في القدس فضلا عما لايمكن تعداده من النساء والأطفال ولم يكن لدينا من جانبنا أكثر من اثني عشر الف رجلا من الأقوياء القادرين مع كثير من المقعدين والفقراء ، ومالايزيد ـ كما أعتقد ـ عن الف ومائتين أو الف وثلاثمائة من الفرسان ، ونحن اذ نورد هذه الأرقام و المقارنات هدفنا أن نبين لكم أن جميع الأمور

عظيمة كانت أم صغيرة اذا مـا أخـذناها على عاتقنا بـاسم الرب فسوف تنجح ، و هذا ما ستثبته الصفحات التالية من كتابي :

وبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت أبـواب جحيم المعركة بأجمعها فانهمرت الأحجار من العرادات ، وطـارت المقذوفات بالهواء وتساقطت الأسهم كوابل مـن المطـر ، لكن عبيد الرب المتمسكين بايمانهم بـكل عزم تحملوا هـذا الهجـوم بـكل صبر ، وثابروا دون ان يعبـأوا بـالموت او الانتقـام الفـوري للمسلمين ، ولم يحسم القتال عند هذه النقـطة ، وعندمـا اقتـربت المعدات من الأسوار أمطرها المسلمون وأمطروا المسـيحيين معهـا بالحجارة والسهام والخشب والقش المشتعل ، والمطـارق المغـطاة بالقار المشتعل والشمع والكبريت والكتان وقـطع الأقمشـة ، لقـد قذفوا هذا كله على الآلات ، وأحب ان أضيف موضحا ان المطـارق كان قد أثبت عليها مسامير بحيث أمكنها الالتصاق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل ، وأشعلت هذه المقـذوفات المصـنوعة مـن الخشـب والقش ـ التى القاها المدافعون ـ النيران التي حالت دون تقـدم الذين لم تعق تقدمهم السـيوف ولا الأسـوار الشـاهقة او الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التي انجزناها طوال ذلك اليوم رائعـة ومـدهشة الى حد اننا نشك في أن يكون التـاريخ قـد عرف مـاهو أعظـم منها ، ومن جديد ، توجهنا بـالدعاء ـ ونحـن على ثقـة بـرحمة الرب ـ الى قائدنا ومرشدنا الذي هـو على كل شيء قـدير ، ومـع حلول الظلام استولى الخوف على الطرفين ، ومع تحـطيم السـور الخـارجي ، وردم الخندق ، بـات الوصـول بسرعة الى السـور الداخلي أمرا سهلا ، وأصبح المسلمون يخشون من سقوط القـدس في تلك الليلة او في اليوم التـالي ، وبـالمقابل كان حملة الصـليب يخشون بدورهم من أن يدعم المسلمون مواقفهم ، بـابداع طـرائق لحرق الآلات القريبة ، وسيطر الرعب والتعب والتيقـظ والأرق على الطرفين المتصارعين ، فقـد عم في معسـكرنا شـعور الأمـل

الواثق ، وسيطر على معسكرهم الفزع المؤلم ، فقد كان المسيحيون يحاصرون المدينة طوعا واختيارا من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر النشاط غير المعتاد بين صفوف الطرفين أثناء الليل ، وعند بزوغ الفجر بادر رجالنا بكل اندفاع وسرعة الى دفع الات الحصار وجرها الى مواقعها ليبغتوا المسلمين الذين حاصرونا بالاتهم التي كانت تتفوق على الاتنا بنسبة تسعة أو عشرة الى واحد ، ولن اقف طويلا عند هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيكون يوم سقوط القدس بكل تحديد ، وعلى الرغم من تفكك معدات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كوابل من المطر والروح المعنوية المتخاذلة لقواتنا ، التي كان التعب قد أخذ منها كل مأخذ ، فان رحمة الرب المسيطرة والتي لاتقهر كانت حاضرة دائما في جهدنا ، ومع ذلك لايمكنني ان امر بالحادثة الطريفة التالية مرور الكرام ، فعندما حاولت امرأتان وضع سحر على احدى الصخور ، انطلقت احدى الأحجار من الآلة نفسها تزمجر في السماء لتقضي بعدها على حياة الساحرتين ، وايضا على حياة ثلاث فتيات كن بالقرب منهما ، وهكذا دمر السحر .

وعند انتصاف النهار كنا في حالة ارتباك وارهاق ويأس نجمت عن المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، ولوجود الأسوار العالية التي لايكاد يمكن اختراقها ، وللمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين ، وفي الوقت الذي بدأنا فيه بالترنح وأخذ المسلمون يتشجعون ، وصلت الينا رحمة الرب الحاضرة دائما شفاء لنا ، فبدلت تعاستنا سعادة ، ففي اللحظة التي كان فيها مجلس قادتنا يناقش حكمة سحب معداتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم بعضها بشكل سيء ، في تلك اللحظة أشار فارس لاأعرف اسمه بترسه من فوق جبل الزيتون الى الكونت والى الآخرين بأن يتقدموا

وكان لهذا تأثير فعال على قواتنا المرهقة ، و استأنف بعض حملة الصليب الذين دبت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الأسوار ، في حين بدأ آخرون بتسلق السلالم والحبال ، وفي الوقت نفسه اطلق شاب سهما مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج غودفري والكونتين ، وسرعان ماابعدت النيران المدافين عن التحصينات وسرعان ماتمكن غودفري من سحب الجسر الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان البرج يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وهكذا تدفق حملة الصليب بدون خوف لابل بكل شجاعة واقدام الى داخل المدينة المتداعية .

وسفك تانكرد وغودفري في المقدمة كميات لاتصدق من الدماء وأنزل رفاقهما الذين ساروا خلفهما الاما هائلة بالمسلمين ، وينبغي ان أقص عليكم نبأ حادث مدهش ومثير ، فقد توقفت المقاومة في واحدة من مناطق المدينة بشكل عملي ، ولكن المسلمون في المنطقة المجاورة لجبل صهيون قاتلوا ريموند بكل شراسة كما لو انهم لم ينهزموا ، وبعد سقوط القدس وابراجها بات بامكان المرء رؤية أفاعيل مثيرة ، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة ، في حين اخترقت الأسهم الموجهة من الأبراج أخرين ، وفي الوقت نفسه عذب أخرون بشدة لوقت طويل واحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهابا وايابا فوق الجثث .

دعوني أخبركم أن هذه الوقائع كانت حتى الآن ذات تفاصيل قليلة وتافهة ، وانني لأجد قصة أخرى هامة عندما نأتي الى معبد سليمان المكان المعتاد للتراتيل والصلوات والعبادات ، هل سأحكي الذي جرى هناك ؟ لو انني اخبرتكم لما صدقتم ذلك وقبلتوه مني ، ولعله يكفي أن احكي لكم انه في معبد سليمان ، وفي الأروقة خاض حملة الصليب بخيولهم في الدم الذي وصل الى ركبهم و سروج خيولهم

وفي يقيني إن في هذا عدالة ربانية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين شتموا الرب هناك لسنين طويلة ، وسلموه الى ريموند مقابل عهد بالأمان ، ومع سقوط المدينة كان تعويضنا رؤية الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدي والابتهاج وانشاد نشيد واحد جديد للرب ، فقد قدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات الشكر والمديح التي لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

لقد كان يوما جديرا بالتقدير ، وسعادة ما فوقها سعادة ،وسرورا سرمديا ، ومحصلة لكدنا وتحقيقا لحبنا أوجد كلمات وأناشيد جديدة للجميع ، وبدل هذا اليوم ـ الذي أؤكد أنه سيخلد على مدى العصور و الدهور ، أحزاننا وصراعاتنا الى سعادة وابتهاج ، ثم ان هذا اليوم قد أزال جميع أشكال الوثنية ، وثبت المسيحية و أعاد الينا ايماننا ، ان هذا هو « اليوم الذي صنعه الرب سنبتهج فيه ونسعد » ، وهذا صحيح لأن الرب أشرق علينا في ذلك اليوم و باركنا .

ورأى العديد اللورد أدهمر ، أسقف لى بوي في القدس ، في هذا اليوم ، وأكد الكثيرون انه كان يمهد الطريق فوق الأسوار ويحث الفرسان على اللحاق به ، وجدير بالتذكير أيضا أنه في مثل هذا اليوم أخرج الرسل من القدس وتفرقوا في جميع أنحاء العالم ، وفي هذا اليوم خلص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب و الآباء ، وسيخلد هذا اليوم وهو الخامس عشر من تموز لذكرى مدح الرب وتمجيد اسمه ، الذي استجاب لصلوات كنيسته و أعاد القدس بالايمان والبركات الى أبنائه ، و أعاد أيضا أراضيها التي وعد بها الآباء ، ورتلنا في ذلك الحين صلاة القيامة ، حيث أنه قام هوبقدرته في ذلك اليوم من بين الأموات ، و خلصنا برحمته.

الفصل الخامس عشر

الوقائع التي أعقبت سقوط القدس و معركة عسقلان

سأتحول الآن للاهتمام بأمور أخرى حيث أن في الوصف المتقدم كفاية ، فبعد مرور ستة أيام أو سبعة انصرف الأمراء - طبقا لعادتهم - نحو انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب المنطقة ، ويحمي الريف من المزيد من الدمار ويعمل كمستشار للناس ، و في أثناء المداولات تجمع بعض من رجال الدين وعبروا للأمراء عن آرائهم وقالوا : اننا نشيد بتحرككم ، ولكن بما أن المسائل الروحية تتقدم على المسائل الدنيوية ، فإن السلوك القويم الصحيح يتطلب أن تنتخبوا أولا قائدا روحيا ، ثم تعمدون بعد ذلك إلى انتخاب حاكم علماني ، وإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فلن نعترف باختياركم ، ولم ينجم عن هذا غير اغضاب الأمراء والاسراع بالانتخاب .

و لا بد من أن أوضح أن الضعف انتاب صفوف رجال الدين في ذلك الوقت ، أولا بسبب موت اللورد أدهمر أسقف لي بوي ، الذي كان يكبح جماح الجيش ويهدئه بأعمال تثير الاعجاب ومواعظ مؤثرة مثلما فعل موسى ، ثم بعد ذلك موت وليم أوف أورانج ، وهو رجل مبجل وأسقف كرس نفسه لحمايتنا ، وكان قد مات في معركة النعمان ، و هكذا لم يقف بعد موت هذين الرجلين الطيبين في وجه الأمراء سوى أسقف البارة مع عدد صغير من الكهنة ، أما أسقف مارتوانا ، الذي كان يسلك سلوكا منحرفا عندما نال بطريق الغش والخداع كنيسة بيت لحم ، فقد وقع في أسر المسلمين بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا .

استخف الأمراء بنصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند صنجيل

على قبول الملكية ، لكنه اعترف أنه يرتجف لدى سماعه اسم ملك في القدس ، ومع ذلك أعلن أنه لن يعترض سبيل أي شخص آخر يقبلها ، وهكذا وقع اختيارهم على غود فري ، وأعطوه لقب « حامي القبر المقدس» ، وما لبث غود فري أن طلب من ريموند تسليمه برج داود ، واعترض الكونت بقوله : إنه كان يخطط للبقاء في المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن يعامل هو و رجاله حتى ذلك الحين المعاملة اللائقة ، ورد الدوق أنه سيكون آخر من سيتخلى عن البرج ، وهكذا تطور الخلاف بينهما ، وكان كل من كونت فلاندرز و كونت نورماندي يؤيدان غودفري وذلك فضلا عن جميع رجال ريموند ، الذين اعتقدوا أن الكونت سيعود إلى لانجويدوك بمجرد فقدانه لبرج داود ، ولم تكن هذه هي المعارضة الوحيدة التي صادفها من أتباعه البروفانسيين ، لأنهم كانوا – في وقت متقدم – قد نشروا أكاذيب قصدوا أن يحولوا بها دون انتخابه ملكا .

وعندما تخلى الرفاق و الأصدقاء عن ريموند تم تسليم البرج إلى أسقف البارة و عهد به إليه إلى أن يتم الفصل في هذه القضية ، لكن ما لبث ريموند أن وجد الأسقف يقوم بدوره بتسليم البرج إلى غودفري دون أن ينتظر قرارا حوله ، وعندما أتهم الأسقف بأنه لم يكن أمينا ، أجاب أنه فعل ذلك مرغما ، وأنه عومل معاملة فظة ، ولقد علمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أي بيت البطريرك الذي كان يقع على مقربة من كنيسة القبر المقدس ، وتحدث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ووجه اللوم إلى رجال ريموند سرا .

وبعد خسارة البرج استشاط الكونت غضبا ، واستاء من أتباعه وقال : إنه قد اعتدي على كرامته ، وأنه لهذا سيغادر البلاد ، وهكذا توجهنا من القدس إلى أريحا ، وجمعنا هناك السعف وأتينا إلى نهر الأردن ، و عملا بتوجيهات بارثلميو صنعنا طوفا من الفروع الصغيرة ، وضعنا ريموند عليه ، وجدفنا عبر النهر ، ثم طلبنا من

الحشد المجتمع هناك أن يصلي من أجل حياة الكونت والأمراء الآخرين ، و اغتسلنا في النهر المقدس ، وكان الكونت ريموند لا يرتدي سوى قميصا وسروالا جديدا ، لكن لماذا أصدر رجل الرب بطرس بارثلميو مثل هذا الأمر ؟ لم يتكون لدي أدنى فكرة حوله حتى الوقت الحالي .

وعند رجوعنا إلى القدس بعد أداء هذه المهمة ، اختار بعضهم أرنولف كاهن كونت نورماندي بطريركا ، وذلك خلافا لرغبة رجال الدين الطيبين ، الذين اعترضوا لأنه لم يكن بعد بمرتبة معاون شماس ، وكان من أصل رهباني ، والأهم من ذلك كله أنه أتهم بمعاشرة النساء في أثناء الرحلة حتى أنه كان موضوعا لقصص فاحشة ، ولا حاجة بي إلى القول إن أرنولف الطموح قد تجاهل قرارات الكنيسة ، وقد حط بمولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ولقد رفع نفسه إلى الكرسي البطريركي بمصاحبة التراتيل و الأناشيد والتصفيق الكبير من الناس ، ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الرباني الذي حل بأسقف ماتورانا الذي حرص على انتخاب أرنولف ووجهه ، فقد ظل يأخذ دخل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم بيع عند قبر الرب ، أو من الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما أن استقر أرنولف بالسلطة حتى راح يسعى بمساعدة السكان المحليين للتعرف إلى مكان الصليب الذي كان يعبده الحجاج قبل استيلاء الأتراك على القدس ، ولم يوضح هؤلاء السكان موقعه ، ومضوا في اللجاج إلى حد أنهم أقسموا أنهم لا يعرفون شيئا عنه ، غير أنهم في النهاية أرغموا على أن يقولوا : إن الوحي يقول أنكم شعب الله المختار ، و أنكم تخلصتم من المحن و أعطيت لكم القدس مع مدن ،اخرى كثيرة ، و لم يكن ذلك بفضل قوتكم الكبيرة بل ارادة من رب غاضب أعمى أهل الكفر ، وقد منحكم الرب قائدكم أبواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، و كسب لكم معارك رهيبة ، و ما دام الرب إلى جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفي آثاره عنكم ؟ ثم

قادوا حملة الصليب إلى قاعة في الكنيسة ، وهناك نقبوا عن الصليب و سلموه لهم ، وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، و شكرناه حيث أنه لم يعد إلينا مدينة آلامه فقط بل منحنا رموز صلبه و انتصاره ، حتى نتمسك به أكثر ، ونحتضن الايمان ونكون أكثر يقينا لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وكما ذكرنا قبل ذلك كان في هذه الأثناء غودفري يحتفظ بالقدس بموافقة الجميع باستثناء ريموند الذي أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، والذي بلا شك هو مفتاح مملكة يهوذا ، وبناء عليه وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفانسيين ، ومهما يكن من أمر جاءت الأخبار أن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة القدس ، وقتل الفرنجة ممن هم في سن العشرين و ما فوقها ، و أسر الباقين مع الفرنجيات برجال من بلاده ، وتحدثت الأقاويل أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال من بلاده ، وبذلك يربي جيلا من المحاربين من الأصل الفرنجي .

وجعلته خططه العملاقة يتبجح أنه سيعامل أنطاكية و بوهيموند المعاملة نفسها ، وفضلا عن هذا كله إنه سيتوج نفسه في دمشق و المدن الأخرى ، زد على هذا رأى بعد دراسة لحجم جيوشه القوية من الرجالة والفرسان ،أن الأتراك لم يكونوا شيئا ، و الفرنجة الذين هزموا الأتراك أيضا ليسوا شيئاو لم يكتف بهذا بل جدف بحق الرب بقوله : إنه سيدمر مسقط رأس الرب و المزود الذي رقد فيه ، و مكان الآلام و الجلجلة ، و بالذات البقعة التي تفجر فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب وجميع البقاع المقدسة الأخرى في مدينة القدس والمناطق المحيطة بها ، وازداد تبجحا فقال : أنه سيخرج الآثار المقدسة من تحت الأرض و يحطمها و يسحقها و ينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي تكون قد ضاعت وابتلعها البحر .

و إثر سماع هذه الأقاويل و الأخبار الأخرى حول الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، و هي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم و نصف اليوم ، اجتمع امراؤنا مع رجال الدين ، ثم سار حملة الصليب المحتشدون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة و الدموع تملأ عيونهم ، طلبوها من الرب ، وسألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي ، كما توسلوا إليه الا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره توا من أجل اسمه ، ثم أتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام نلتمس عونه بالأغاني والتراتيل و الذخائر المقدسة ، و هناك انبعثت صلواتنا من أعماق كياننا و تدفقت أمام الرب و تضرعنا إليه أن يتذكر تدفق بركته في المكان نفسه « إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، و كان التغيير بمثابة تكفير ، و أتوك مصلين في هذا المكان فاستمع اليهم من السماء يا رب و خلصهم من أيدي أعدائهم » (انظر سفر الملوك ٨)

و بعد مباركة الأسقف وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية القدس ، ثم رحل غودفري و فرسانه للتحقق من صدق الأقاويل المتعلقة بالملك ، و بعدما وصلوا إلى سهول الرملة بعثوا بأسقف مارتورانا ليطلع الكونتات في القدس على حقيقة الحال ، و عندما تأكد القادة من وقوع المعركة أصدروا نداءا إلى جميع الرجال الأقوياء ، و صلوا للرب ، و انطلقوا خارجين من القدس يحملون كامل أسلحتهم وتتقدمهم الحربة المقدسة ، و في اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، و تحركت في اليوم التالي جيوشنا و زحفت إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب .

ومع الغروب اقتربنا من نهر يقع على الطريق من القدس إلى عسقلان ، و شاهدنا عربا يرعون قطعانا من الماشية من الأغنام والجمال الكثيرة ، فأرسلنا مائتا فارس للاستطلاع ، لأن العدد الكبير من العرب و المواشي جعلنا نعتقد أن قتالا سيذشب ، و كما قلنا من قبل سرنا في تلك الأثناء في تسعة صفوف ، ثلاثة في الساقة ، و ثلاثة في المقدمة و ثلاثة في القلب ، كي نواجه اي هجوم علينا بثلاثة

صفوف ، حيث يكون القلب على استعداد دائم لمساندة المؤخرة و المقدمة ، و هرب الرعاة العرب لدى مشاهدتهم لفرساننا ، و لو أن الرب أعانهم كما أعاننا كانوا سيدافعون عن مواشيهم ، ذلك أن عددهم وصل في الواقع إلى ثلاثة الاف ، بينما كان جيشنا يضم الفا و مائتين من الفرسان ، و لم يكن لدينا اكثر من تسعة الاف من الرجالة ، و بعد فرارهم حصلنا على كميات هائلة من الغنائم ، و اسرنا و قتلنا عددا ضئيلا من العرب ، و لما كان النهار على وشك الانتهاء ، ضربنا الخيام ، و ارغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، و عن مدى استعدادهم ، و عن أعدادهم و قواتهم ، و اعترف الأسرى أن العرب يريدون حصار القدس ، و من ثم أن يطردوا و يأسروا او يقتلوا الفرنج جميعا ، و أضافوا أن أميرهم الذي ضرب مخيمة على مسافة خمسة فراسخ منا ، سيزحف نحونا في اليوم التالي ، و لم يتجرأ الرعاة على تقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لأنه كان يتزايد يوما بعد يوم ، أما عن دورهم ، فقد أوضحوا انهم كانوا مجرد رعاة شرعوا في بيع مواشيهم إلى الجيش المصري

و استعدادا للصدام المقبل أحل حملة الصليب كل واحد منهم الآخر من ذنوبه التي اقترفها بحقه أو لم يقترفها ، وباتوا في هياج كبير إلى درجة أنهم لم يأبهوا بالتقارير المتعلقة باستعدادات العدو ، و في غمرة الثقة اعتقدوا أن العرب سيكونون اكثر جبنا من الغزلان و اكثر وداعة من الحملان ، و تولدت هذه الثقة من إيماننا أن الرب كان إلى جانبنا في الدروب الأخرى ، و أنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده بمعاقبتهم حتى و إن كانت قضيتنا واهية ، و هكذا اثرنا أن نعد الرب مدافعا عنا و اننا معاونوه ، و صدرت الأوامر انذاك إلى الجيش لأن يكون الجميع على اتم استعداد للمعركة وقت الفجر ، و أن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، و الا يلمس اي منا الغنائم حتى ينتهي القتال و إلا صدر بحقه قرار بالحرمان ، و

قضينا ليلة بائسة بدون خيام و مع قليل من الخبز ، و بدون نبيذ ، و

بكمية ضئيلة من الطحين و الملح ، إنما كانت امدادانا من اللحم - على الأقل - في وفرة الرمال ، و هكذا أكلنا اللحم ، و استخدمنا لحم الضأن بدلا من الخبز .

و عند حلول الفجر قرعت الطبول و صدحت الأبواق مستدعية الجيش و موقظة له ، و هكذا تحركنا عند اشراق شمس النهار ، و الحرس مرتبون على الجوانب كلها حسبما أوضحنا من قبل ، و تحركنا قدما نحو معسكر المسلمين ، و كان المسلمون غارون في معسكرهم اعتقادا منهم أن الفرنجة سيبقون قرب أسوارهم عند سماعهم بقدومهم ، و بعدما وصلتهم أخبار فرار الرعاة و قتلهم دعاهم ذلك الى الظن في قرارة أنفسهم أن الفرنجة قدموا من أجل الأسلاب ، و بعد حصولهم عليها سيعودون الآن أدراجهم.

وفي الحقيقة كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الفرار من القدس وعن ضآلة حجم جيشنا ، وعن الوهن الذي أصاب رجالنا وجيادنا ، وكانوا متأكدين - وقد وضعوا ثقتهم في حجم قواتهم وقدراتهم - أنه بامكانهم اغراقنا ومعسكرنا ببصاقهم ، وسمعنا أن منجموهم قد نصحوهم بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الاسبوع ، وحذروهم أن التحرك قبل ذلك الموعد لن يكون مفيدا .

وحسبما أوضحنا من قبل تحركنا في تسعة صفوف ، وضاعف الرب حجم جيشه الى حد بدونا فيه اننا نبلغ حجم القوات العربية ، وحدثت هذه المعجزة حين شكلت المواشي التي حررناها قطعانا ، وسارت خلفنا دون أن يوجهها أحد ، حيث كانت تقف حين نتوقف عن السير ، وتجري حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الامام إذا فعلنا ذلك ، ولم يعد في مقدورنا احصاء البضائع ولاتقدير كميات الاسلحة والخيام التي استولينا عليها ، وعندما شاهد العرب ذبح العديد من رفاقهم ، ونهب الفرنجة لمعسكرهم بكل شغف وأمان ، توقفوا عن القتال وقرروا : أنه طالما من المحتم علينا الفرار ففيم الانتظار ؟

واذا كان المسيحيون الذين اجهدهم الزحف وهدهم التعب والجوع والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد وهم على هذه الحالة ، فما الذي سيفعلوه بنا اذا مانالوا قسطا من الراحة واستردوا بأسهم ؟ لقد حققوا النصر علينا وهم نصف احياء ومستضعفين واوقعوا في قلوبنا الرعب .

ونتيجة لهذا ، عاد العرب وقد أسقط في ايديهم - ماعدا بعض الاستثناءات إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا مقدار ميل واحد

وقرر ريموند أن يبعث بوهيموند ، وهو رجل تركي، الى الأمير يحمل مشروع سلام ، وليذكره أنه حين رفض تسليمنا القدس اضطر الى قتالنا وكان على بوهموند أن يقرر في الوقت نفسه الموقف ، وأن يرى ماإذا كان الأمير يخطط للفرار أم للقتال ، وليتبين كيف كان رد فعله ازاء الهزيمة ، وكان بوهموند ، مع انه تركي الأصل ، يتكلم بعدة لغات ، وماهرا واريبا ، ومخلصا لنا ايضا ، وقد سمي بوهيموند بسبب أن بوهموند الكبير كان قد تلقاه عند جرن المعمودية حين ارتد عن الاسلام وجاء إلينا برفقة سلاحه وزوجته .

وهاهنا ينتهي بسعادة كتاب ريمون دي جيل